

تم تحميل هذا الكتاب
من موقع الملفات الإسلامية
<http://islamicfiles.net>



أحلام يسيرة دونها أهوال

islamicFiles.Net



تأليف
أ.د / مبروك عطية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله الذي جعل حياة عباده حياة طيبة ، والصلاة والسلام على من صارت المدينة بسكناه إياها طيبة ، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه ولو بكلمة طيبة إلى يوم يعيش فيه التقى عيشة راضية ، ويكون فيه الشقى أمه هاوية وما أدراك ما هيه . نار حامية .

وبعد ،،

فالكتاب فكرة ، وفكرة هذا الكتاب خلاصتها أن هناك أموراً يسيرة تحقق السعادة في الدنيا والآخرة ، ولكن دونها عوائق ، تحول دون تحقيقها ، وقد أطلقت على هذه الأمور الأحلام ، كما أطلقت على تلك العوائق الأهوال ، فسميته "أحلام يسيرة دونها أهوال".

وقد رأيت أن هذه الفكرة تتحقق في فصلين :

الأول : أحلام يسيرة دونها أهوال من النفس البشرية أى من سوء الطباع ، وفاسد الموروث ، وثقافة السوء ، وفقد ما يحقق تلك الأحلام ، كالذى يشتهى رغيف خبز ، وليس معه نصف الجنيه الذى يشتري به رغيفاً يؤكل ، فالرغيف حلم يسير ، ولكن دونه أهوال ، حيث فقد المحتاج إليه الذى يراه حلماً المال (وهو قليل) الذى يشتريه به ، وكالزواج المبنى فى الإسلام كما يبنى غيره على التيسير ، تزوج عبد الرحمن بن عوف - رضي الله عنه - بوزن نواة ذهباً ، وزوج سعيد بن المسيب ابنته بدرهمين وهى القرشية الحسبية النسبية ، ولكن دون هذا الحلم اليسير أهوال من العادات والتقاليد

الفاسدة التى جعلته من الأحلام العسيرة؛ إذ لا بد من شبكة ومؤخر
صداق كبير، وأطقم، ومفروشات وقاعات، وقائمة منقولات، وغير
ذلك مما لا أساس له فى دين الله - عز وجل. وهكذا .

والثانى: أحلامنا العسيرة يسيرة عند الله .

ومعنى ذلك أن الله - تعالى - لا يعجزه شىء فى الأرض ولا
فى السماء، ونحن نعتقد أنه - تعالى - لو أعطى كل إنسان
مسألته لما نقص ذلك من ملكه عز وجل شيئاً قال تعالى: ﴿فَقُلْتُ
اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا. يُرْسِلَ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا. وَيُمْدِدْكُمْ
بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾.

قارن هذه المنح بالرغيف، فلن تجد نسبة بينهما فالمطر الذى
تخضر بسببه الأرض، والأموال والبنون، والجنت والأنهار مما
يشبه الأحلام المحالة، لكنها عند الله يسيرة ولكن دونها أهوال من
العبادة المجانية التى لا تحققها؛ فقد فهم كثير من الناس الاستغفار
على أنه بالكلام لا بالفعل وليس هذا صحيحاً؛ فإن معناه طلب
المغفرة بالسعى فى سبلها كالصلح بين الناس، وبر الوالدين،
وصلة الرحم، وإطعام الطعام، وإفشاء السلام، أى معاملة الناس
بمكارم الأخلاق، وغير ذلك .

ومن ذلك قوله - تعالى - ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ
وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾.

وكما هو حال كثير من الناس فى الاستغفار كذلك فى الشكر
والشكر الذى يحقق زيادة النعم هو الشكر بالفعل، لا بالأقوال قال
ربنا - تعالى - ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾.

فكم من القضايا التى يظنها كثير من الناس من وادى الأحلام
يمكن أن تتحقق بسهولة، فما يتصل بالناس ممكن إذا صحت
النيات وصدق العزم على تغيير السلوك وسئ الموروث من
العادات والثقافات، وما يتصل بالمولى رب الناس. - سبحانه
وتعالى - أيسر من ذلك لو فقهنا ديننا، وعملنا بمقتضى إيماننا،
فرحمة الله قريب من المحسنين .

وإنى لأرجو أن يتقبله الله عز وجل عملاً صالحاً وأن ينفع به
عباده، إنه ولى ذلك والقادر عليه وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت
وإليه أنيب، وصلى الله وسلم على خير من صلى وصام وعاش الحياة
سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه إلى يوم
الدين،

أ. د. مبروك عطية

الأستاذ فى جامعة الأزهر

الفصل الأول

أحلام يسيرة دونها أهوال
من النفس البشرية

أحلام يسيرة دونها أهوال

اسمه على طرف لساني... اللهم صل على النبي.. فلان لا،
 علان لا، عبد الله.. لا، عبد الودود... لا، يظل يقدم "عبد" على
 جميع ما يحفظ من أسماء الله الحسنى، دون فائدة.. عبد الصبور...
 عبد الصمد... عبد الأحد... عبد الواحد... عبد القادر، ما اسم
 الشارع؟ إنه ... أعوذ بالله.. كنت أحفظه... الشارع الذى به محل
 كذا، وكانت تسكن فيه عمتى،... إنه شارع يسير اسمه... أعوذ
 بالله.

ويظل يذكر المبلغ الذى أدان به صاحبه أو استدان منه، فلا
 يستطيع كذلك...

حلم يسير أن نذكر الأشياء، ولكن دون هذا العلم اليسير.
 أهوال، أهمها النسيان، وانشغال الفكر بالخطب الجلل إن لم يكن
 المرء نسياً بطبعه، أو مريضاً بمرض النسيان من أجل ذلك أمرنا
 بالكتابة، نزل الوحي من السماء، نزل به الروح الأمين على قلب
 سيدنا رسول الله - ﷺ - ليكون من المنذرين. بلسان عربى مبين،
 وكان للوحي كتاب يكتبونه منهم زيد بن ثابت - رضي الله عنه - الذى جمع
 المصحف إثر موقعة اليمامة التى قتل فيها الكثير من حفظة القرآن
 الكريم، وكانت فكرة عمر - رضي الله عنه - عرضها على الخليفة أبى بكر
 - رضي الله عنه - لأنه يخشى ضياع القرآن الكريم بضياع الحفظة، وشرح
 الله صدر زيد لما شرح له صدريهما، فكان أول جمع للقرآن الكريم
 وكان تدوين السنة كذلك فى عهده - رضي الله عنه - فهو يقول الحق فى
 الرضا والغضب، وكانت كتابة الدين «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا
 تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ» ومن أجل سرعة نسيان
 المرأة لانشغالها بما لا يحصى من صغائر الأشياء قال الله

تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾.

وقد يؤدي الخطب الجلل إلى نسيان ما لا ينسى؛ كما كان من أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- حين نسيت في حادثة الإفك اسم يعقوب -عليه السلام- فقالت: لا أجد ما أقوله لكم إلا قول أبي يوسف: "فصبر جميل".

وما أكثر الخطوب في زماننا التي تنسى الناس ما لا ينسى وقد قال الله - عز وجل - ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ. يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ واليوم تذهل لما نابها من ظلم وفساد وتذهل لما شغلت به من مشاهدة الأفلام والمباريات، وطفلها يصرخ في غرفتها. وهى فى ذهول عنه من كيد الذين كادوا لهذا الدين، فضيعوا معانيه، ويحدثوا فجوة بين الناس وبين الإحساس بتلك المعاني، إذ المتصور أن الناس حينما يسمعون قول الله - تعالى -: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ يشعرون بهول ذلك اليوم العظيم: لأن فيه أموراً غير معهودة لديهم فى حياتهم الدنيا، ومن هذه الأمور ألا تذهل المرضعة عما أرضعت، بحال من الأحوال، فإذا كان ذهولها اليوم قد صار معهوداً فكيف يعد من أهوال يوم القيامة !

وذلك يحتاج إلى بحث مستقل، وعمل بتمامه نسأل الله أن يتمه.

لأن الحاجة إليه شديدة، ومن الناس من إذا قلت له: اكتب أجابك بقوله: أنا عقتى دفتر، أو قال لك: كتبت هنا، ويشير إلى رأسه، يدفع به الغرور إلى عدم الكتابة، فإذا اعتراه النسيان قال لمن لاه: جل من لا ينسى، فهل كانت هذه العبارة غائبة حين قيل له: اكتب!

ما كان أيسر أن يكتب، ويحفظ ما كتبه، فلا يضيعه وهو بلا شك فى حاجة إليه، والله در القائل .

العلم صيد والكتابة قيده فاحفظ صيودك بالحبال الوثيقة

أى احفظ صيدك الذى هو العلم بالكتابة، والقرآن الكريم من أسمائه الكتاب، وهو فى كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون ما كان أيسر أن يكتب، وما كان أيسر أن تستذكر، والله عز وجل يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾، وكثرة الذكر علاج للغفلة والنسيان، وقد حث النبي -صلى الله عليه وسلم- المسلمين على مداومة اللهو بالقرآن الكريم؛ لأنه سريع التفلت، وعد نسيان المرء آيات كان يحفظها من الذنوب، حتى يتوب المرء، فيعود إلى قراءة ما كان يحفظ ليستعيد حفظه، فيتعبد به ربه، ويتدبر ما يتلو فإذا به يجدد عهده ويذكر ما نسيه، ويغير من سلوكه ليكون وفق ما نزل به الذكر الحكيم، وما أيسر أن يكون للمرء عهد كل يوم بكتاب الله - عز وجل، ولكن دون ذلك أهوال من انشغاله بما يستحق ولا يستحق.

أحلام يسيرة دونها أهوال

ما كان أيسر عليه أن ينتظر قليلاً حتى تهدأ سخونة الشأى فى كوبه، ثم يشربه بالهناء والشفاء، لكنه ركب رأسه وضرب زوجته، وأغضبها، وأقسم بالله تعالى ثم بالطلاق ألا تبيت ليلتها إلا عند أهلها، هاج وماج، وثار، وارغى وأزبد، حيث كانت عادته أن تأتية زوجته بكوب الشأى وبكوب آخر فارغ، يضع فيه الشأى يبرده، فيوسخ بذلك كوبين، الأصلى المملوء بالتفل، والفرعى الذى يصب فيه الشأى وكانت امرأته هذه المرة على عجل حيث إن لها رضيعاً يصرخ بغرفة نومها، فقدمت إليه كوب الشأى الساخن دون

أن تأتيه بالآخر الفارغ، وهرعت إلى رضيعها تغيثه، وترحمه من صراخه الشديد الذى يكاد يقضى عليه، وتضمه إلى صدرها، وترضعه، وحين قالت إننى معذورة، والطفل يحتاج إلى من يرحمه، قال: فى ستين ألف داهية، الولد ومن خلف الولد، وحين قالت: ما كان صعباً عليك أن تقوم من الصالة إلى المطبخ لتأتى لنفسك بكوب فارغ أخذ يضرب كفا بكف، ويقول: أنا أقوم! أنا أحضر لنفسى كوباً فارغاً، وما الداعى إلى وجودك فى البيت إذا كنت أنا سوف أقوم من الصالة إلى المطبخ لأحضر لنفسى كوباً فارغاً.

ولا شك أن مثل هذا الرجل قد سمع مئات المرات فى خطب الجمعة، وفى الأحاديث النبوية، والتي تذكر عند المناسبات أن أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها - سئلت: كيف كان رسول الله - ﷺ - فى بيته؛ فأجابت: كان فى خدمة أهله، أى أنه - ﷺ - كان يحلب شاته، ويرقع ثوبه ويخصف نعله، وهو سيد الرجال - ﷺ - ولا شك أن مثل هذا الرجل يدعى أنه يحب رسول الله - ﷺ -.

ودعوى الحب شأنها شأن كل دعوى، تحتاج إلى دليل، والدليل على صدق تلك الدعوى الاتباع، فهلا اتبع مثل هذا الرجل سيدنا رسول الله - ﷺ - فخدم نفسه بنفسه خصوصاً عند انشغال امرأته بصغيرها ورضيعها الذى هو ابنه أيضاً!

ما كان أيسر كما ذكرت أن يصبر قليلاً حتى تهدأ سخونة شايه، وما كان أيسر كذلك عليه أن ينتقل من الصالة إلى المطبخ، ولن يكلفه ذلك خطوات، لكن دون أهوال من سوء العادات والطباع.

وأعرف كذلك أستاذاً جامعياً أشرف على رسالة ماجستير، إثر سفر مشرفها الأول، وكانت قد تمت، ونضجت، لكن قدر الطالب أن

سافر مشرفه فجأة إلى إحدى دول الخليج قبل أن يأذن له بطباعتها واقتضت اللوائح أن يحول الإشراف عليه إلى أستاذ آخر؛ فأتاه بالرسالة إلى الكلية، وكان هذا الأستاذ يسكن فى قرية بعيدة عن القاهرة؛ ويأتى فى يومين إلى الكلية بالقاهرة بسيارته الجميلة، فقال للطالب: ما هذا؟ قال: الرسالة يا أستاذ، وإن كنت قد شقيت بسبب سفر أستاذى فلان فقد أسعدنى الله بأن تكمل فضيلتك المسيرة، وأن أفيد من ملحوظاتك القيمة، فأكون قد جمعت بين مدرستين عظيمتين فى الفكر وأسلوب البحث العلمى؛ فقال الأستاذ: اكتب عندك هذا العنوان. وائتنى بها فى قريتى، فلبى الطالب أستاذه، وكتب العنوان، وسافر من غده إلى القرية البعيدة وهو فقير، وكان متزوجاً ويعول أطفالاً، وما كان أيسر أن يأخذها الأستاذ بيمينه، ويضعها فى رسالته، ويرحم تلميذه من وعشاء السفر، وتكاليفه، لكن دون ذلك أهوال من سوء الطباع، والغرور، الذى يسيطر على عقول بعض الأساتذة الذين يرون فى هذا السلوك الطيب انتقاماً لقدرهم العالى، ومنصبهم الرفيع، وجاههم العظيم، فأين التواضع الذى هو من صفات المسلم، وأسوته فيه رسول الله - ﷺ - الذى كان مثلاً فيه وقد روى ابن ماجه فى سننه أنه - ﷺ - حمل قمصانه من السوق إلى بيته، وقد عرض عليه أكثر من واحد أن يحملها، لكنه قال: صاحب الشئ أولى بحمله.

أحلام يسيرة لكن دونها أهوال

أن يقول لمن أخطأ فى حقه، أو نال من شرفه: آسف - أمر يسير جداً، لكن دونه أهوال من قسوة القلب، وفساد العادات، حيث يظن كثير من الناس أن الاعتذار انكسار، وأنه لا يعتذر أبداً لأحد،

كهذا الذى يقول لك، ويسمع الدنيا معك: أنا لا أخاف إلا من الذى خلقتى، ويبدو- والله أعلم- أن الذى يقول هذه العبارة إما جاهل، وإما قاسى القلب، لا يخاف الذى خلقه؛ لأن الذى خلقه ذكر أموراً هى مظنة الخوف عند عباده، فكيف يقول عباده: نحن لا نخاف شيئاً، ولا أحداً إلا الله، ومن هذه الأمور خوف الرجل نشوز امرأته، وخوف المرأة نشوز زوجها، قال الله - عز وجل - : ﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ﴾.

وقال سبحانه: ﴿وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾.

ومما يتعلق بالأسرة كذلك قول الله - سبحانه - : ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾.

وكثيراً من الناس لا يخافون نشوز أحد، ألا ترى إلى قول الرجل فى نشوز امرأته: تدق الجدار برأسها، وتشرب من البحر، وتعمل ما تريده، ويطلق، أو يمسك على ضرر، وكذلك قول المرأة فى نشوز زوجها: يذهب فى ستين ألف داهية .

ومن هذه الأمور التى هى مظنة الخوف المعتبر خوف الفقر، ألا ترى إلى قوله - عز وجل - فى آية التوبة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

وخوف الفقر معتبر شرعاً، وعلاجه أن يعمل، فيأكل ويتصدق، كما قال - ﷺ - ، ولا يتخذ من الحرام سبيلاً إلى ذلك، فالله خير الرازقين، ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾، وكذلك الاعتدال فى الإنفاق .

ومن تلك الأمور التى هى مظنة الخوف المعتبر شرعاً الخوف على الذرية الضعيفة، وأمن الخوف فى هذه المسألة تقوى الله - عز وجل - قال ربنا - تعالى - : ﴿وَلِيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾.

إلى غير ذلك من الأمور التى جمعتها فى كتابى (بيئة القرآن الكريم).

والخوف من الله - عز وجل - يقتضى الخوف مما خوف منه - عز وجل - .

وفى هذه المسألة بالذات نرى الذى لا يعتذر لا يخاف حتى امتداد الخصومة، وهى لا تحل فوق ثلاث كما قال النبى - ﷺ - حتى فى الأسرة الواحدة، تجد خصومة ممتدة بين الزوجين لسنوات قالت لى إحدى الفضليات إنها منذ عشرين سنة تنام فى حجرة، وينام زوجها فى حجرة أخرى، لا كلام بينهما، ولا دفع ولا مودة، وأنه ينفق على ضعف على ابنته الصغرى الباقية بعد زواج البنين والبنات، أما هى فلا ينفق عليها، وهى فى غنى عن نفقته، وحين قلت لها: إن هذه حياة بعيدة عن منهج الإسلام الذى يقول فيها ربنا - تعالى - : ﴿فَأَمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَانٍ﴾ قالت: إن أهلى يزوجون ولا يطلقون، وكذلك من أجل الأولاد .

وهناك خصومات بين الأخ وأخيه الشقيق، وبين الزميل وزميله، وبين الجار وجاره، وغيرهم، وكان بالإمكان أن تذهب تلك الخصومات بكلمة "أسف" إن لم يكن هناك حق مادي يجب أدائه، ولكن دون ذلك أهوال من فساد الطباع، ومن شح النفس نعم يجب أداء الحق المادي الذى على أحد الأطراف، حتى يكون الصلح متيناً، بعكس ما عليه كثير من الناس الذين يريدون

صالحاً صورياً، تقبل فيه الرعوس، ويتحدث فيه المصلحون بنحو قولهم: الصلح خير، والكبير في مقام الوالد، وللوالد احترامه، ونحو ذلك من العبارات المطلقة للهيبة، حتى يتم ذلك الصلح الصوري، وينفض الجمع، ويبقى اللهيبة تحت الرماد ولأول ملابسة يعود جمرًا حارقاً، وكأنا ما اصطلحنا بالأمس، وما كان أيسر أن تدفع الحقوق إلى أصحابها ولكن دون ذلك أهوال من شح النفس،

أحلام يسيرة دونها أهوال

من قال بأن الزواج أمر عسير، يتطلب شبكة، ومؤخر صدق كبيراً، وأطقماً، ومفارش، وحجرات، وقاعات، وغيرها من الأمور التي تكاد تصل إلى حد الإعجاز، وقد قال لنا نبي الهدى - ﷺ - "التمس ولو خاتماً من حديد" وقال للرجل الذي لم يجد صداقاً، زوجتك إياها بما معك من القرآن الكريم، وقد قال عليه الصلاة والسلام لربيعة بن كعب خادمه: ألا تتزوج يا ربيع؟ فقال يا رسول الله، ليس عندي ما أعطى المرأة، فمنحه رسول الله - ﷺ - ذهباً قدمه صداقاً، وسأل أصحابه أن يعينوه، فأولم وتزوج، وكان زواجا ناجحاً، وزوج سعيد بن المسيب نجم التابعين ابنته الحسبية النسبية بدرهمين، وكان زواجا موفقاً والنماذج على ذلك أكثر من أن تحصى؛ فالأصل في الزواج وفي غيره التيسير، وما خير رسول الله - ﷺ - بين أمرين إلا اختار أيسرهما، وفي الحديث: "أكثر النساء بركة أيسرهما مهراً".

وقد تزوج عبد الرحمن بن عوف - ﷺ - بوزن نواة ذهباً، وصار من بعد صاحب ملايين، وقد عشنا زماناً وجدنا فيه كبار العائلات بدأت الأسرة بحجرة وفرش يسير، ولم تكن عندهم من

ثلاجة ولا غسالة ولا بوتاجاز، وفتح الله، فسكنوا القصور، وتوفرت هذه الأجهزة وغيرها، وهناك فكرة مهجورة وهى أن الحياة القائمة على تطور وتدرج تكون اللذة فيها أشد؛ لما فيها من تكرار اللذة، وذلك لأن المرء إذا انتقل من غرفة إلى غرفتين فرح بتلك النقلة، فإذا انتقل من الغرفتين إلى الثلاث فرح مرة أخرى وهكذا، وكان الناس من قديم إذا اشتروا ثلاجة طبخوا الأرز باللبن فرحة وابتهاجاً، ووزعوا على الجيران، وزارهم الناس مهنئين، وداعين الله بالبركة، وأن يبسر لهم الأمر حتى يرزقهم الغسالة كما رزقهم الثلاجة، ووضع من لا ثلاجة عنده بعض ما يحتاج إليها عندهم؛ فإذا هم يؤجرون على هذا الماعون ويشربون الماء البارد، وينعمون، وقد روى عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه فسر النعيم في قوله - تعالى -: ﴿ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾. بأنه شربة الماء البارد، فإذا جاءت الغسالة ارتفعت الأكف إلى الله - تعالى - تضرعاً وشكراً، وانفجرت الأسارير، وكانت البهجة، والسعادة، وهكذا، وكانت الزوجة أحياناً تناشد زوجها أن يبدأ بالغسالة؛ لأن بظهرها آلاماً، لا تقوى على هذا الغسيل الكثير، أما الثلاجة فيمكن تأجيلها إلى حين ميسرة، متعة، وحوار، ورجاء، وعمل وتطلع إلى رحمة الله الواسعة.

أما إذا بدأ البيت بكامل أدواته فلا شك أن هذا من فضل الله - تعالى - وواسع رحمته، للقادر عليه أما غير القادر فبوسعه أن يبدأ بما تيسر، وتأتى الأشياء جميعها تترى، ويبسر الله دون جفاف ريق، وطويل انتظار، وعذاب، وعزوف أحياناً عن الزواج المرهق الذي الأصل فيه التيسير، ولكن دون هذا التيسير أهوال من محاكاة الناس، والإصرار على تمام كل شيء وكماله، ولن تكمل الدنيا بحال، مهما وفرنا وجمعنا، وحرصنا على هذا التمام

الذى لم يكن سبباً جوهرياً فى استقرار الحياة واستمرارها، بل رأينا كثيراً من أولئك الذين تزوجوا على التمام والكمال طلقوا بعد أيام معدودة من هذا الزواج، فأين البركة؟ وأين الاستقرار؟ وأين الاستمرار؟

ما أيسر ذلك الحلم الذى دونه أهوال من سوء العادات، والدين منه براء، فإن الدين كله يسر، ليس فقط فى مجال العبادات، حيث لم نفقه يسره إلا فيها، وإنما أيضاً فى مجال المعاملات، نعم نحن لا نحفظ من يسر الدين إلا مجال العبادات، بأن نقول: من يسر الدين أن الذى لا يستطيع أن يصلى قائماً صلى قاعداً، ومن لم يستطيع أن يصلى قاعداً صلى مضطجعا، ومن لم يستطيع الصوم أفطر، فإن كان مريضاً أو على سفر، ومن لم يستطيع الحج فلا حج عليه؛ لقول الله - تعالى -: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ وهكذا، أما فى مجال المعاملات فقل من أهتم بيسر الدين، ومن العجب أن الذين يحفظون منهج اليسر فى العبادات ويأخذون به لا ييسرون على الناس فى المعاملة مع أن العبادة مشروعة من أجل تهذيب السلوك، والتراحم بين الناس، ومن ذلك تيسير الزواج الذى صار شبه مستحيل لكثير من الشباب بسبب أهوال العادات لا بسبب شريعة الله المبنية على التيسير .

أحلام يسيرة دونها أهوال

عاش عمراً غير قصير يحلم حلماً يسيراً، ولكن دونه الأهوال، وما أكثر الذين يحلمون تلك الأحلام اليسيرة، التى دونها مفاوز تقطع ظهر البعير كما قال عبد الله بن المبارك - رحمه الله -، وتلك الأحلام خلاصتها أن يقضى المرء مع أحبته وأرحامه، بل مع زوجته وأولاده وقتاً بلا مشكلات، وقضايا، وشكاية، وعتاب،

وجراح، ومطالب فقط يقضى معهم ذلك الوقت بلا هم ولا غم، يستمتع بهم ويستمتعون به، وإن كان بينهم كلام كان فى ذكرى عطرة طيبة، تبعث من الماضى أريجاً ورحيقه، وتبث فى روح الحاضر الذى هو بلا شك مؤلم، تبث فيه شيئاً من الأمل، والتفاؤل، يأكلون معاً لقمة بلا نكد ويشربون معاً شراباً بلا كدر، يقول أحد الرجال: تزوجت منذ أكثر من أربعين سنة، وما زال هذا الحلم دونه أهوال، ما دخلت على زوجتى ذات مرة إلا واجهتنى بما كان، وبما هو كائن، وبما سوف يكون من سوء، إلى درجة أننى طالما رجوتها أن تترك لى فرصة التقاء أنفاسى من صعود السلم ومنذ عشرين سنة تقريباً نصح لى زميل من الزملاء أن أصحبها فى نزهة صيفية إلى الإسكندرية، فهناك يكون وقت الاستجمام والراحة، وقد كان، صحبتها، وتكلفت الكثير من المال، ووصلنا إلى الإسكندرية، وأول شىء قالت له زوجتى عندما دخلنا الشقة التى استأجرتها من أجل قضاء أسبوعين فى إجازة: أهذه شقة؟ بكم استأجرتها؟ تراهم ضحكوا عليك، إنها لا تساوى أكثر من مائة جنيه فى الشهر، دهانها باهت، وفرشها بال، وأخذت تتفقدها وتنتقد جميع ما فيها، وقالت: أنا الآن أحمد الله على شقتنا بالقاهرة، إنها قصر، وليست مثل هذه، إن هذه مقبرة، ولا روح فيها، فذكرتها بالذى قالت فى شقتنا التى فى القاهرة: فقد أطلقت عليها أيضاً اللفظ نفسه "مقبرة" فقالت: نعم مقبرة، ولكن بالنسبة لى هذه قصر، فقلت الحمد لله.

وكنت فى حاجة إلى أن أنام قليلاً من وعناء السفر، ومشقة الطريق، وما إن وضعت جنبى على السرير حتى نادتنى - الحق الحق - فيه صراصير.. يا خرابى.. يا وكستى قلت أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ولا يوجد مكان فى الأرض ليس فيه صراصير، استهدى بالله، واهدئى، فصرخت وهذا برص، وظلت تنادى حتى

أحلام يسيرة دونها أهوال

فقد اللغة:

أقسم لى بالله أنه حين سافر إلى بلد كان يتمنى أن يسافر إليه شعر بأنه معدوم بلا وجود، وجثة بلا روح، حيث وقف أمام بائع وهو عاجز عن خطابه بالإنجليزية، حلم يسير أن يسأله عن شيء يريده، وأن يستفسر منه عن ثمنه، وأن يأخذ بغيته، ويشكره، ويمضى، قال: ولولا أن فلاناً كان معنا فى الرحلة لما شعرنا بشيء من حياة فى تلك البلد، فقد كان ماهراً بالإنجليزية، وكنا نعول عليه تماماً، ونرهقه خصوصاً إذا أراد أحداً أن ينزل ولم يرد الآخرون، فهذا الراغب فى النزول يقول له: هيا، وعند عودته يكون غيره راغباً فى النزول فيقول له: هيا، وهكذا، حتى أتعبنا الرجل، وأرهقناه، وأجره على الله، وقد أسر إلى بعض الرفاق بأنه لم يكن راغباً فى صحبة هذا الرجل، وبمجرد أن صارحنا بتلك الرغبة كدنا نقوم عليه نضربه بالنعال، فماذا كنا فاعلين لو تخلف عنا هذا الرجل، ولم يكن معنا، كنا سنصير مثل العمى الصم البكم وإن كنا نسمع ونتكلم وقد أكرمنا الله - عز وجل - بصحبته، ورحمنا به، وظللت من بعد ذلك أحفظ له الود، وأذكره بفضلته علينا، وما أسداه إلينا من معروف كبير، لا ينكر، وهو يذكر فيشكر بلا شك وقد قال لى رجل طيب عاش مدة غير قصيرة فى بلد أوربى، وذات يوم قال لرجل دون أن يدري: السلام عليكم، فرد عليه الرجل قائلاً: وعليكم السلام ورحمة الله باللغة العربية، قال فأمسكت به، وأنا بين الحقيقة والوهم، والله كنت إلى الوهم أقرب، وقلت له: هل رددت على السلام بالعربية فقال: نعم، فأخذته فى حضنى، وكأنه حبيبى الذى افتقدته منذ زمان ولا أدري له من عنوان، وفجأة دق بابى، ودخل معتذراً إلى عن طول غيابه، وعدم اهتمامه وسؤاله، فغفرت

قمت، وقلت لها: أين الصراصير وأين الأبراص، قالت: نزلت الصراصير فى البالوعة، وفر البرص، قلت: وفر النوم من عيني والحمد لله على كل حال، ماذا تريدان؟ قالت: أريد الفرار من هنا!

قلت : إلى أين؟

قالت: لا أدري، ابحث لنا عن شقة أخرى تليق بنا .

قلت : ومن أين آتى بها؟

قالت: لا أدري، تصرف .

قلت : كيف أتصرف، ونحن فى الصيف، ولا يوجد ثقب إبرة فى الإسكندرية !

قالت: إذاً نعود إلى القاهرة .

قلت : هلا كان ذلك غداً!

قالت: أبداً، الآن، فلن أستطيع المبيت هنا ليلة، بل ولا ساعة واحدة.

واضطرت بعد شجار طويل أن أترك الإسكندرية، وأعود إلى القاهرة وظللت وأنا فى الطريق أحلم بالعودة إلى القاهرة كى أنام ساعة. قلت: لقد تركت المقبرة كما قالت زوجتى وعدت إلى القصر كما قالت أيضاً، لكن هذا الحلم لم يتحقق، حيث إنها أول ما وصلنا تزهقت، وقالت: أعوذ بالله من تلك المقبرة التى كنا فيها قلت لها: ألم نطو صفحتها، وعدنا، قالت: لكن رائحتها الكريهة ما زالت فى أنفى، قلت: وماذا أفعل، هل أترك هذا القصر وأبحث عن مكان وليكن فندقاً كيما أستريح من وعاء السفر؛ فصاحت كالمجنونة: أنت لا تريد العيش هنا، أفصح عما فى داخلك وقلها بصراحة، وقلت: ناشدتك الله، ارحمىنى يرحمك الله، ما أريد إلا أن أنام ساعة، وهكذا ظل حلمى اليسير دونه أهوال .

ذلك كله ورحمته وتناسيت كل شيء كان، كأنى وجدت وطنى
وكنت أهيم على وجهى، لا أدرى أى الجهات أسلكها إليه، ولا أى
الدواب أمتطيها: لتحملنى إليه، ومع هذا الشعور وغيره أجدنى
عاجزاً عن التعبير عن شدة فرحتى به، وسعادتى بلقائه، وسألته
عن وطنه الأصيل فأخبرنى أنه من فلسطين، قلت له: وأنا أيضاً
من فلسطين، أنا من البلد الذى تنتمى إليه وبروحى أفتديه، فقد
انتشلتنى من وهدة هابطة إلى قمة عالية، انتشلتنى من العدم إلى
الوجود، ومن الموت إلى الحياة، أين كنت يا رجل، لقد تعذبت
طويلاً مذ غبت عنى، وشعرت بسعادة غامرة فى عيني الرجل،
وكأن قد قدر ما أنا فيه، وعرف ما أعانيه، ساعتها أدركت أننى به
قد صرت إنساناً، تحدثت إليه فى القضية الفلسطينية، وظلم
الصهاينة، ونوم العرب، وكأننى رجل سياسة من الطراز الأول، مع
أننى لم أشتغل بالسياسة يوماً، ولم أكن حتى مشغولاً بها، وحدثته
عن سبب سفرى، وعناء حالى فى يقظتى ومنامى، وعن الطعام
خصوصاً الملوخية المصرية، ومحشى الكرنب وورق العنب
والفلفل والطاطم، والبيض، فاندعش، وقال: كل هذه المحاشى
معروفة لدى، إلا البيض، فشرحته له وكأننى طباط، بأن يسلق
قليلاً، ويفرغ منه الصفار، ثم يحشى، وأخذنا نضحك معاً، وبدون
أن أدري وجدت ذراعى تتسابق إلى ذراعى، وفجأة توقفت،
 واعتذرت له، فقد أكون قد عطلته، وأعطانى الرجل عنوانه، وأخذ
منى عنوانى، وتبادلنا الزيارات وأعاننى باللغة على كثير من
الأمور.

وقد ثبت أن النبى - ﷺ - أمر زيد بن ثابت - رضى الله عنه - أن يتعلم
لغة يهود، فتعلمها فى خمسة عشر يوماً وتعلم غيرها كذلك مثل
الحبشية من خدم رسول الله - ﷺ - وتعلم اللغات مهم جداً فى
حياتنا اليومية بعد أن صار العالم كله بمثابة قرية صغيرة كما

يقال، وقد صارت العولمة واقعاً لا مفر منه، وقد صارت التقنيات
بلغات صانعيها، ولا بد من التعامل معها بعد أن نمنا قروناً طويلة
وتخلفنا عن ركبها، وصرنا لها مستهلكين لا منتجين، ناهيك
بالطب الذى ليس لأحد من الناس غنى عنه، وغيره، وقد يقف أحد
من أهل المرضى حائراً أمام صيدلية لأنه لا يذكر اسم الدواء الذى
يحتاج إليه المريض، لأنه ليس بالعربية، رأيت كيف أن هذا حلم.
يسير، دونه أهوال .

أحلام يسيرة دونها أهوال

فقد العلم:

وفقد العلم من باب فقد التعارف، والعلم بالشىء، أفضل بكثير
من الجهل به بما لا يحصى من الأعداد، والتقدير، ومن قديم قال
الناس: العلم بالشىء، ولا الجهل به، ولا أعنى هنا العلم الذى هو
قواعد بأصول، من العلوم الطبيعية، والإنسانية، وغيرها وإنما
العلم الذى أعرض له هنا هو العلم العام، الذى ينبغى أن يلم به كل
إنسان؛ لكى يصلح من شأن نفسه، ومن حاجات بيته، كالعلم مثلاً
بالإسعافات الأولية التى يحتاج إليها جريح أو مريض، قبل أن ينقل
إلى المستشفى أو إلى طبيب مختص، فبعض الناس لا علم له بها،
وهى يسيرة لكن دونها أهوال، هى الجهل، وفقد العلم، ولا شك أن
امرأة تعرف كيفية التعامل مع زوجها مريض السكر تختلف عن
أخرى جاهلة، يطيب لها أن تقدم له الشاى بسكر زائد، وكذا
القهوة، وتغرقه كل يوم بصنوف المحاشى، والنشويات، وغايتها
أن تسعده، وتملأ معدته ولو على حساب صحته، وما يمكن أن
يعتريه من مضاعفات، منها غيبوبة السكر، وما ينتج عن ارتفاعه
من كوارث، أما الأولى فهى تعلم مثلاً أن مريض السكر لا بأس أن
يأكل كل شىء، ولكن بكميات قليلة، فهى تحسب الحساب، وتعرف

ما يجب أن يقدم له، وتتصانع معه بلطف حتى يقبل ذلك ويتعوده، ويسلم هو، ومن ثم تسلم أسرته، وهذه ملحوظة مهمة، وتنبيه واجب فإن التي تعلم ما يجب أن يقدم لزوجها؛ فتقدمه له بأسلوب جاف، إنما تسئ من حيث أرادت الإحسان، وقد يؤدي هذا السلوك السئ منها إلى عنف منه، وعناد كبير، فلا بد مع العلم من حسن سلوك، وحسن تصرف مع المريض الذي هو في حاجة إلى رحمة ومودة مع العلم .

ومن ذلك أن يكون المرء على علم بما يصلح أدوات بيته، ألا ترى أن صنبور ماء قد يتساقط منه الماء قطرة قطرة تبدو كأنها صوت صاعقة خصوصاً بالليل الذي تسكن فيه في الغالب الأصوات، ومن اليسير أن يوضع له قلب في أقل من خمس دقائق، لكن هذا العلم اليسير دونه أهوال هي فقد العلم والمعرفة بفك الصنبور، وتركيب قلب له، لابد من استدعاء سباك، وقد يكون مشغولاً على عادته، أو لا يرد على هاتفه إن وجد معنا هاتفه، أو غير ذلك، فيستمر الأذى فضلاً عن الإسراف في الماء وهو حرام بلا خلاف .

ماذا لو على رب البيت لو تعلم كيف يصلح من أدوات بيته الضرورية، مثل بعض أعمال السباكة، وتسليك مصارفه، وتنظيفها، وغير ذلك، ومنه بعض العلم بالكهرباء والتوصيلات، وقد تكون أموراً سهلة، لكنها قد تؤدي إلى فساد كبير، إذا أهملت، وانتظر أهل البيت السيد الأستاذ الكهربائي، الذي يجعل مثل غيره من أصحاب الصنائع من الحبة قبة .

وكثير من الناس يقودون سياراتهم، ولا علم لهم بشيء مما يصلحها إذا تعطلت، يقول لى أحد الثقات إنه خرج يوماً بسيارته، وكان ذلك في الشتاء، وكان يوماً مطيراً فأعمل المساحتين أمامه،

ومضى في نشوة الشاعر أو قلب الشاعر، سعيداً بحبات المطر، والمشى فيه، وفجأة توقفت المساحتان تماماً، وقاد السيارة بصعوبة بالغة، فهو لا يكاد يرى شيئاً أمامه، وبين الدقيقة وأختها يتوقف ويمسح الماء بيديه حتى رأى كهربائي السيارات، فحمد الله تعالى، وعرج عليه، وقال له: إن المساحات لا تعمل؛ فقال له: افتح الكبود، ففتحه، فوضع يده، وفي أقل من دقيقة قال له: شغل المساحات، فشغلها، فتراقصت أمام عينيه، وضحكت الدنيا في وجهه، وأعطى الكهربائي عشرة جنيهات، وكان لا يريد منه شيئاً، ومضى سعيداً لكنه عاد إليه من جديد، وقال له: أنا أشكرك على ما فعلت، ولكن بالله عليك ماذا فعلت، فقد تصورت أنها قد تتعطل مرة أخرى، وأنا منك بعيد، فماذا أفعل فأراه، وعلمه في دقيقة، فهل ترى لهذه الدقيقة من ثمن كبير، لو تعلم فيها من قبل لما ذاق الأهوال في الطريق حين تعطلت!

أحلام يسيرة دونها أهوال (الفقد)

فقد التعارف:

من الأهوال التي تقف دون الأحلام اليسيرة فقد السبيل إليها ومن هذا الفقد: فقد التعارف، تصور رجلين يقف أحدهما إلى جنب الآخر بموقف من مواقف المواصلات العامة، وفجأة تسمع صوت منبه سيارة، وقائدها ينادي أحدهما دون الآخر، ويصيح: يا فلان يا أستاذ فلان، أنت يا جدد، فإذا رآه جرى نحوه وبسرعة فتح الباب، وركب، وسلم. وسأله صاحب السيارة إلى أين ينوي أن يذهب، وقد يكون ذاهباً إلى مكان قريب، وقد يكون الذي كان يقف إلى جواره ذاهباً إلى مكان أقرب، فكونه يركب معهما حلم يسير، ولكن دونه أهوال، هي فقد التعارف فلو كان صاحب السيارة يعرفه

لناده معه، وتحقق حلمه اليسير ولو كان الذى وقف إلى جنبه يعرفه لناده كذلك، واستأذن له صاحبه الذى لا يعرفه بأن يركب معهما فأذن له، وتعرف عليه من خلال الذى يعرف، وتحقق الحلم، لكنه لم يتحقق بسبب فقد التعارف، والله عز وجل - يدعو عباده إلى التعارف قال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾.

وكم جلب التعارف من خيرات، إذا صح، وسلمت معه النية، والتزم المتعارفون بآداب هذا الدين من حرمة الدم والعرض والمال، والاستئذان، وغيرها، إذ إن هذه الآداب بمثابة الحصن المنيع الذى يحمى التعارف، ويصونه من عبث المتعارفين الذين لا يلتزمون بتلك الآداب، فبعضهم يعبث بحرمان بعض، وبعضهم يظلم بعضاً، وبعضهم يلعن بعد ذلك السوء اليوم الذى تعرف فيه على هذا الذى ظلمه وانتهك حرمة، واعتدى على حق من حقوقه، وما لهذا شرع التعارف بين الناس، إنما شرع من أجل تحقيق المصالح المشتركة بين الناس، والناس يحتاج بعضهم إلى بعض كما تحتاج أعضاء البدن الواحد بعضها إلى بعض، جاء رجل إلى ابن عباس - رضى الله عنهما - وقال له: ادع الله لى أن يغينى عن الناس؛ فضحك ابن عباس، وقال: يا هذا، إن الله خلق الناس يحتاج بعضهم إلى بعض كما يحتاج أعضاء الجسم الواحد بعضها إلى بعض، ولكنى أدعو الله لك أن يكفيك شرار الناس.

وقد يتعرف المرء على بعض الناس من أجل مصلحة مشتركة معروفة، مشروعة، وليس شرطاً فى هذا التعارف أن يكونوا سمناً على غسل، وليس من شرطه أن يدخل كل منهم بيت صاحبه، وأن يحدث أولاده خصوصاً النساء، فأنت تتعرف على صاحب البقالة، وعلى الكومسرى وعلى كثير من الناس، وهو

تعرف محدود، يؤدى غايته من إفشاء السلام، ومعرفة القليل أو الكثير من الطباع، ومد يد العون كما تمدّها لكل محتاج، وهؤلاء من باب أولى لكنك إن زرت بعض هؤلاء وهو مريض لا تزوره بين الحين والحين كما تزور أخاك وأرحامك وأصدقاءك المقربين، وهذا لا بأس به، كما أن ولدك طالب العلم يتعرف على كثير من زملائه فى المدرسة أو الجامعة، ولكنه لا يصادق كل من تعرف عليه، ولا يدخل كل زملائه بيته، وإنما يصطفى منهم رفاقاً يثق بهم، ويطمئن إليهم، يزورهم ويزورونه، ويبادلهم حباً بحب، وتواصلًا بتواصل.

وفقد التعارف هو الذى يجعل من لا يعرفك لا يثق بأمانتك مع أنك أمين، فهو يرتاب، ولا يسمح لك بالانصراف من محله إن كان بائعاً إلا إذا سدّدت ثمن سلعته بخلاف ما لو كان يعرفك، ويثق بك، ساعتها يقول لك: خذ السلعة، وما شئت من مال إن أردت، وسدد فى أى وقت، لكن الذى لا يعرفك لا يثق بأن تأتية بباقي ثمن السلعة ولو كان زهيداً.

انظر إلى هذا المبلغ الزهيد، وكيف كان أهوالاً تمنعك من مغادرة المكان، فهو حلم يسير، نعم حلم يسير أن تمضى وعليك مائة جنيه مثلاً، لكن دونه أهوال هى أن الرجل لا يعرفك، فلن تمضى حتى تدفعها أو تهاتف أحداً يعرفك كى يأتية بها، أو تترك السلعة ولتأت فى الوقت الذى تكون فيه جاهزاً بتمام الثمن فلك الخيار فى هذا كله، إلا فى الحلم اليسير، فدونه أهوال، هى أنك غير معروف، فلم لا تتعارف!

أحلام يسيرة دونها أهوال

لم أنس تلك الليلة التى زرت فيها زميلى القديم الأستاذ فاروق أستاذ اللغة العربية بمدرسة حلمية الزيتون الثانوية للبنات

فى منزله بعد أن عاد من بعثته إلى بلد من بلاد أوربا، وقد أصيب هنالك بجلطة فى المخ، وعافاه الله منها، ليلتها التقينا، واستعدنا بعض ذكرياتنا، وقال لى دون أن أسأله عن ظروف الجلطة: أتدرى لم أصابتنى تلك الجلطة؟ إنها أصابتنى من شدة الفرح، ولعلك لاتصدق؛ حيث جرت العادة أن المصاب بالجلطات دائماً يكون الحزن والهم سببها، وأنا على عكس ذلك فإن مخى لم يتحمل الفرح، كنت يا سيدى أسير فى أحد الشوارع، وهى على ما تسمع نظيفة جداً هنالك إلى درجة أنى كنت أقول: إنها تلحس بالألسن، ولا تنظف بالأدوات التقليدية المعروفة من شدة نظافتها ولمعاتها ولمحت وريقة صغيرة إلى جانب الرصيف، ففز على أن أتركها، فاتحنت، والتقطتها، ووضعتها فى أحد صناديق القمامة، وفجأة وجدت سيارة شرطة تدنو منى وتتوقف، ويسألنى ضابط عن هويتى واسمى ومكان عملى، فسألته عن سبب ذلك، وهل أخطأت، أو ارتبكت شيئاً مشيناً، فأخبرنى بأنى قمت بعمل عظيم رصدت القوانين عليه مكافأة سخية، وسوف تصلنى إلى مكان عملى، ووصلتنى، لم أكن أدرى أننى قمت بعمل عظيم إذ رفعت ورقة من فوق الأرض ووضعتها، فى المكان الذى يجب أن توضع فيه إلا عند سيدنا محمد - ﷺ - القائل: إن رجلاً وجد شوكة فى الطريق فقال: هذه تؤذى الناس، فنحاه جانباً، فنظر الله له، فشكر الله، وغفر له، وأدخله الجنة، أما مثل هذا عند المسلمين فلا يبدو عملاً عظيماً، أفيكون عند غيرهم عملاً عظيماً، ترصد له مكافأة!

لم يتحمل مخى هذا المعنى؛ فأصابتنى جلطة وأخذ الرجل يضحك، وكانت ليلة طيبة، قضيناها فى الحديث عن المفارقة بين العمل والعلم، فنحن نعلم أن النظافة من الإيمان، وأن ديننا دين الطهارة الحسية، والمعنوية معاً، أى طهارة الظاهر من الأبدان،

والثياب، والأماكن والأوانى، والأدوات، وطهارة الباطن من تخليص القلب من أدران الحقد والحسد، والبغضاء، وغيرها من أمراض القلوب، ومع ذلك لا نقوم بنظافة ظاهر، ولا نحرص على نظافة باطن، وتلك هى المفارقة بين العمل والعلم فالعلم موجود، لكن ما أشبهه بالكتاب المهمل، والرسالة الجامعية التى تحتوى على موضوع عظيم، ووصايا مهمة فيها علاج لكثير من قضايا الحياة بشتى مجالاتها .

أو ما يسميه علماء التربية العلم البنكى، الذى يكون حامله بمثابة جهاز التسجيل، تضغط عليه، فتسمع الفرائد، والعجائب، لكنه لا يتأثر بما فيه، وكذلك كثير من الناس، ألا ترى أننا ربما كتبنا هذه العبارة (النظافة من الإيمان) على جدار تحته من النفايات والقاذورات ما يشهد بالبون الشاسع بين العلم المعلق، والواقع البغيض، أى بالمفارقة بين العلم والعمل الأمر الذى هو سبب تخلفنا عن ركب الأمم، وسوء أحوالنا، وما أصاب زميلى سببه أن الحلم اليسير الذى دونه أهوال فى بلادنا ليس دونه أى هول فى بلاد أوربا وغيرها، وقد أصاب الرجل ما أصابه لأنه عاش عمراً طويلاً يحلم بهذا الذى رآه هناك أن يتحقق هنا، فلما رآه واقعاً هنالك أصابته الدهشة، وتملكه العجب، فأصيب، وعلى حد تعبيره لم يتسع مخه للفرحة؛ لأنه لم يفرح يوماً فى بلاده بهذه الروح، روح النظافة، التى هى من الدين بمكان، من أجل هذا أصيب، والحمد لله الذى عافاه، إن نظافة الأماكن من الأحلام اليسيرة ولكنها دونها أهوال من التعود على القاذورات، والأنس بها كأنها الأصل وما هى بأصل، ومن اعتاد شيئاً أدمنه؛ وصار له سبيلاً والأمل فى التخلص منه بعيد، حيث إن من مقتضياته أن يتعاون عليه الجميع، وأن تدب روحه فى كل حى، ساعتها فلن تجد قاذورة من القاذورات، وكيف تجدها وقد تنازعتها أيد كثيرة!

أحلام يسيرة دونها أهوال

ما تمنى شيئاً مثلما تمنى أن يخفض جاره صوت الكاسيت الذى لا يهدأ بليل ولا نهار، كلما دخل بيته شعر بأن هذا الصوت منبعث من داخله، لا من داخل بيت جاره، لا يستطيع أن ينام، ولا أن يكتب ولا أن يقرأ، ولا أن يحدث أحداً من أهله، ولا حتى يخلو إلى نفسه ليفكر فى أمر ما، حتى فى الحمام، متوتر، لا يستطيع أن يقضى حاجته فى هدوء، إنه ينفخ دائماً، ويشهق لظى، وزفيره لهيب دق ذات يوم بابه، وسلم عليه فى أدب جم، واستعطفه وعلم منذ اللحظة الأولى أنه لا فائدة، فقد قال جاره باستخفاف والله أنا لا أراه عالياً يا أخى، ثم إنى أنام عليه وأصحو وكذلك امرأتى، تعود عليه مثلى، فلما قال له: لا بأس أن تسمع نفسك وأهلك، وأرجوك أن ترحمنى رد عليه قائلاً: ركب بيتك عازل صوت، كل إنسان حر فى بيته. حصلت البركة، ومضى أسفاً، ولم يحقق حلمه اليسير.

ما أسوأ مثل هذه الجيرة، التى غاية ما يكون من ورائها أن يرحم الجار جاره من صوت عال يؤذيه، ويكدر عليه صفوه، وهذا ليس حلماً صعب المنال؛ فإنه لا يسأله ماله، ولا عياله، ولا يريد منه شيئاً فوق طاقته، إنما يريد منه فقط أن يحرك يده الكريمة، يمدّها إلى جهازه عالى الصوت، يخفض من علوه، وهو يستطيع مع هذا سماعه بهدوء، كذلك، أى أنه لن يحرم سماعه ولن يحرمه ذاتاً؛ فإن جاره لا يقول له: أعطنى جهازك، أو حطمه، وإنما يرجوه أن يخفض فقط من صوته، فهل هذا مطلب عسير، أو حلم صعب المنال، إنه بلا شك حلم يسير، لكن دونه أهوال من النفس البشرية غير المهذبة، وتهذيب النفوس من مقاصد البعثة النبوية

الشريفة. وقد تكرر ذلك فى الكتاب العزيز، قال الله - تعالى - ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ . فَادْكُرُونِي أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون﴾. وقال عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾. وليس من تزكية النفوس أن يستمع المرء إلى جهاز تسجيله وغيره بصوت مرتفع ما دام قادراً على سماعه منخفضاً، وليس منها أن يدق باب المرء فإذا بجاره على الباب، يستأذن، ويسلم، ويدخل فى أدب جم، ويرجوه شيئاً يسيراً، ويرجعه صغراً، وكان بوسعه أن يلبي له طلبه؛ إذ إن له حقاً عليه، ألا ترى إلى قول النبى - ﷺ -: "ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه".

وليس من تزكية النفوس أن يكون جواب امرئ مسلم خصوصاً الجار: أنا حر؛ فإن الحرية معنى من المعانى المظلومة، فهى تنتهى إذا بدأت حرية الآخرين، نعم أنت حر أن تسمع ما تشاء بهدوء لا يؤذى الآخرين وأنت فى هذه الحرية عليك تبعة ما تسمع، بمعنى أنك حر فى سماع السوء، وسوف تنال عقاب ذلك، وأنت حر فى سماع الطيب، وسوف يجزيك الله خيراً، وقد فهم أناس كثيرون أن قول الله - تعالى - من سورة الكهف: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾. معناه الحرية، لكنه لم يصف هذه العبارة وذكرها واجب، وهى أنه إذا اختار الإيمان دخل الجنة، وإذا اختار الكفر دخل النار. ومثل ذلك فى المعاملة، إن اختار الإحسان إلى جاره فقد دل بذلك الإحسان على إيمانه؛ لقوله - ﷺ - الذى رواه البخارى فى صحيحه وغيره "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره" وإن اختار الإساءة فقد عرض نفسه لغضب الله - تعالى - وسخطه، والإحسان من تزكية النفوس، والإساءة من

نقيض تلك التزكية، أى من توحش لا يعرف صاحبه الأئس، ومن جثارة لا يعرف صاحبها اللين، ومن قساوة لا يعرف صاحبها الرحمة، وفى الحديث الصحيح: "من لا يرحم لا يرحم" وفيه: "الراحمون يرحمهم الرحمن".

أحلام يسيرة دونها أهوال

عند كثير ممن من الله عليهم هناك أهوال دون تحقيق الحلم اليسير من الفواحش، وأكرم بها من أهوال تنجي صاحبها من عذاب أليم، وذلك لقول الله - عز وجل -: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ﴾. الأنعام الآية: ١٥١.

وفى تفصيل ذلك أقول: إن الله - عز وجل - يقول: "ولا تقربوا الزنا" ما فيها نهى عن الزنا، وإنما فيها نهى عن قرببه، والنهى عن قرب الزنا أبلغ من النهى عن الزنا؛ لأن النهى عن كربه دليل على اجتنابه بالكلية، لأنه إن لم يقربه ابتداء لم يقربه فلن يصل إليه أبداً، تصور مثلاً أن رجلاً يمشى فى الشارع الذى يسكن فيه صاحب له، يمكن أن يمر عليه، ويمكن أن يمضى دون أن يمر عليه، لكن إذا مشى فى شارع آخر غير الشارع الذى يسكن فيه فهلبقى احتمال مروره بصاحبه! لا شك أن هذا الاحتمال مفقود، فهيهات أن يمر به، وهو غير مار بشارع ليس فيه بيته، وكذلك الذى لا يقرب الزنا، أى لا يخلو بأجنبية، ولا يقبل، ولا يلمس، ولا يحضن، ولا غير ذلك بل لا يخضع بالقول لامرأة، وغير ذلك من الأمور التى تصح أن تكون مقدمات للزنا، وما أكثر هذه المقدمات فى حياة الناس، مع الأسف، وبعض الذين يخوضون فى الدين بغير علم يقولون: إنها جائزة، ولا مشكلة فيها خصوصاً أن الزواج معسر فى هذا الزمان، والشباب لا يجدون شققاً وغير ذلك

لا شك أن هذا إلى العيب أقرب منه إلى الجادة والصواب وأنه إلى الفوضى أقرب من إلى النظام لا سيما نظام الدين المستقيم، الذى يقول: "ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن" وقد يتصور إنسان أن مثل هذه المقدمات البغيضة أمور يسيرة أو أحلام يسيرة، لكن دونها أهوال من تقوى الله - عز وجل - لا يقترفها من توغل الإيمان فى قلبه، وملاً نور اليقين به صدره، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾.

وقد ترى الرجل عازفاً عن قرب الفواحش ابتداء، وهو تقى وقد تراه مقبلاً عليها، لكن قبل اقترافه إياها يتذكر من تلقاء نفسه، أو يذكره غيره فإذا هو مبصر، فيتراجع، ولا يفعل القاذورات، ألا ترى إلى قوله - تعالى -: ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾. أى إن كنت تقياً، وسمعت منى "إنى أعوذ بالرحمن منك" ارتدعت، حيث إن لك وازعاً من دينك، ويقظة من ضميرك تجعلك تتراجع عن تحقيق رغبتك.

وتصور أول ما قاله يوسف - عليه السلام - حين راودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك، ماذا قال؟ قال أول ما قال: "معاذ الله" وهكذا ترى عباد الله المتقين المخلصين على لسانهم تلك الاستعاذة الصادقة بالله رب العالمين. الذى أمر بالمعروف ونهى عن المنكر.

ذلك أن تتصور هذه الفكرة فى سياق هذا الموضوع، وهى عزوف الإنسان عن الصغائر، التى يراها محالة، فدونها أهوال من تقواه، كيف بالكبائر والجرائم التى تؤدى إلى فساد كبير فى الأرض، من سفك الدماء، والظلم، وأكل أموال الناس بالباطل وغير ذلك، هل يقبل عليها ذلك الذى يعد الصغائر من وادى المحال، إنه

بلا شك لا يرتكبها أبداً وبالتالي لك أن تتصور حال أمه، لا أقول كل أفرادها على هذا المستوى، وذلك لأن في الناس كما قال تعالى الظالم لنفسه، ومنهم المقتصد، ومنهم السابق بالخيرات فلو أن الأمة على هذه الأجزاء الثلاثة لأخذ السابق بالخيرات أخويه في ركابه، لكن المأساة أن يغلب الظالم على نفسه وأن يسود، وأن يكثر، حتى يقال: كثر الخبث، وفي كثرة الخبث من الخطورة على الناس ما فيهما؛ لحديث أم سلمة - رضي الله عنها - حين قالت للنبي - ﷺ - أو نهلك وفيما الصالحون يا رسول الله! قال: نعم إذا كثر الخبث، فما أجمل أن يرى المسلم صغائر الذنوب مثل الجبال كما قال ابن عباس فوق رأسه، بخلاف المنافق الذي يرى الكبائر كأنها ذباب فوق رأسه، هنالك بلا شك فرق بين الرجلين، كالفرق بين السماء والأرض، وبين الحياة والموت!

أحلام يسيرة دونها أهوال

حلم يسير أن تتحرك خطاك يوم الجمعة، وأن تستمع إلى خطبة مفيدة نافعة؛ لأن الخطيب مؤهل لأداء ذلك، لكن دون ذلك أهوال، سببها أن الخطيب لم يعد تلك الخطبة وبين يديه المراجع والمصادر مطبوعة مزينة مزركشة تسر الناظرين، وأمامه لاب توب، بضربة واحدة على موقع ما يستطيع أن يقرأ الصحيح، وأن يفيد منه، إنه ليس مثل أبي أيوب الأنصاري الذي سافر شهراً على ناقته من أجل أن يسمع حديثاً، ثم رجع، وليس مثل غيره من العلماء الذين سافروا من أجل طلب العلم، وارتحلوا واغتربوا، وعانوا، أو مثل اللغويين الأوائل كسيبويه وشيخه الخليل بن أحمد، وغيرهما، الذين جابوا الصحارى بحثاً عن ذي ثقة يحكى لهم لهجة، صارت اللهجات مدونة والعلوم مكتوبة، وبكل اللغات، والرجوع إليها ميسر لا مشقة فيه، ولكن دون ذلك أهوال الكسل

والخمول وضعف الهمة، والركون إلى مشاهدة الفضائيات، وغيرها، الأمر الذي أصاب عقول الخطباء بالتخمة وتخمة العقول أشد خطراً من تخمة الأبدان؛ لأن تخمة الأبدان يمكن علاجها بالعقاقير الطبية، والتمرينات الرياضية، لكن تخمة العقول فساد كبير، لا تعالجها العقاقير، ولا التمرينات. ولكن يعالجها شيء يسير اسمه "الهمة والنشاط" وهما من الإرادة والغرم والتصميم ولكن الهمة قد سافرت إلى غير رجعة، وصارت الكتب والمراجع أسماء في الذاكرة، وزينة على الجدران، ديكور كما يقولون، ما فتحها الخطيب، وما اعتكف عليها، وإن اضطر فتحها من أجل أن ينظر في شيء نفاه، وأثبتته غيره، أو يرد به على من هاجمه.

ما أصعب أن يكون الشيء في المتناول وما إليه وصول، حيث إن الإفادة منه محققة، والرجوع إليه سهل، وليس بذى عذر، أي ليس مثل العيس "الإبل" التي قال فيها الشاعر:

كالعيس في الصحراء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول
وقبل هذا البيت بيت مهم، هو قوله:

ومن العجائب والعجائب جمة قرب الحبيب وما إليه وصول

وإذا كان الشاعر يرى أنه من العجيب عدم الوصول إلى الحبيب برغم قربيه، فإن من العجيب ألا يفيد الخطيب من المصادر برغم قربها، فهي بين يديه مطبوعة منمقة، واضحة، محققة، فمن اليسير جداً أن يتعامل معها، وأن يفيد منها، وأن يغترف من معينها زاداً يرفع به رأسه في الناس، ويعلمهم، ويبث فيهم المنهج الرشيد الذي يعالج واقعهم، ويبشرهم برضوان الله في الدنيا ويوم

يلقونه، ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾. ولن يتحقق هذا الفضل من الله والرضوان عن جهل وعن تفاخر وعن ضباب فى الوعظ، و جهل فى الإرشاد، ولكن بالعلم، والعلم قواعد وأصول، وكليات وجزئيات، وحدود معروفة وقضايا تمس صلب الحياة، فنعالجها على هدى ونور إن كثيراً من الذين يعتلون المنابر يقصون على الناس حواديت بلا سند، ولا معنى، أو ينقلون إليهم نشرات الأخبار وهم قد سمعوها من قبل، وربما فهموا أبعادها أشد مما فهمه الخطيب نفسه الذى أقحم نفسه وجمهوره فى السياسة إلى غير ذلك من الأمور التى لا صلة لها بالواقع الذى يعيشه الناس.

من أجل ذلك كان على الخطيب أن يحقق هذا الحلم اليسير، على نفسه، وعلى الناس بالإطلاع الجاد، وإعمال الفكر فيما يناسب البيئة التى يخطب فيها. ولا يتكل على ما يسمى بفتح الله - عز وجل - يقول كثير منهم حين نسأله عن موضوع خطبته: والله ما أعددت شيئاً، لكن الله يفتح! أقول لمثل هذا: نعم إن الله يفتح بأن يخرج منك ما أودعه فيك من علم حصلته بهمة ونشاط، وقوة: ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾. فإذا لم يكن داخلك شيء منه فكيف يفتح الله عليك؟ هل تظن أن جبريل سوف يهبط عليك بعلم..

أحلام يسيرة دونها أهوال

﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ . فَكَّرْ رَقَبَةً . أَوْ إطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ . يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ . أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ . ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ . أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾.

صورة من صور القرآن الكريم فى بيان الأهوال التى تقف دون تحقيق الحلم اليسير لرقبة تود أن تنفك من عبودية البشر إلى

عبودية الله وحده فالأولى منتهى الذل، والثانية منتهى العز، وبوسع الذين آمنوا أن يشتركوا فى عتق الرقاب، وبوسع أولى الأمر أن يجمعوا الزكاة ومنها يحررون رقاب البشر من قيود الديون، والفقر والذل والحاجة وليتيم محروم قريب من غنى قادر على إسعافه وإسعاده، قد يكون عمه أو خاله، أو ابن عمه أو ابن خالته، ولمسكين ملتصق بالتراب من شدة الحاجة والجوع، يرفع رأسه فى الناس برغيف أو بلقمة أو بثمره، أحلام يسيرة، ولكن دونها أهوال هى عقبة النفس الكؤود، التى جبلت على الشح "وأحضرت الأنفس الشح" وذلك عند الدعوة إلى الصلح الذى قال فيه النبى - ﷺ - "الصلح بين المسلمين جائز إلا صلحاً أحل حراماً، أو حرم حلالاً" لكن كيف يصطلىح الناس وقد حضر الشح الذى يقول لصاحبه: حذار حذار من أن تتنازل عن جنيه واحد، أو عن حبة واحدة، ويصور له أن تنازله عن شيء من حقه فيه إذلال له، وفيه اتهام الناس له بالضعف والهوان، وعليه أن يكون رجلاً أسداً، لا هراً ناعماً، وكل ذلك من الأوهام التى تجعل الأحلام اليسيرة صعبة المنال، عزيزة الوقوع، ومن الأحلام ما يتوقع برغم عظمتها واستحالة وقوعها فى ضوء معطيات الواقع العصيب. فما عسى أن يقال فى الأحلام اليسيرة، التى هى أسهل بكثير من تلك التى يعتقد العاقل الخبير بأمور الحياة أنها من قبيل المستحيل ولكنها تتوقع.

وقد مر المنفلوطى برجلين، كلاهما يشكو بطنه، فسأل الأول عن سبب وجع بطنه فقال: أكلت فوق طاقتى، وسأل الثانى عن سبب وجع بطنه فقال: لم أكل لقمة منذ ثلاث ليال فقال الأديب المنفلوطى، لو أن الذى أكل فوق طاقته أعطى الثانى الذى لم يأكل منذ ثلاث لقمة لما شكا أحد منهما وجع بطنه، إنها المعادلة

المفقودة، والتي من السهل السير إقامتها على الوجه الصحيح الذى يعتدل به طرفاها، أغياها وأيسرها حتى يصيرا جميعاً يميناً، باعتدال وحكمة، أليس من اليسير أن يعطى الغنى الفقير لقمة، لو أكلها لما جاع، ولما شكا بطنه ولو أضافها الغنى إلى ما أكل لأوجع بها بطنه، لكن الذى يحول دون أن تتحقق تلك المعادلة أهوال من عقبة النفس التى لا يقتحمها ولا يتجاوزها إلا من وقاه الله شح نفسه ﴿وَمَنْ يُوقِ شَحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

وشح النفس من الأوجاع والأمراض العضال، وهو كما ذكرت من الأوهام، حيث يتوهم الشحيح أنه لو أخرج من جيبه شيئاً ضاع، وضاعت أسرته، وهو مع طول الأمد والاستمرار يورث التأصيل فى النفس والقلب حتى يكاد يكون أصلاً ومنهاجاً، ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾.

وقد يبخل المرء على نفسه، فيقتل نفسه من حيث يظن أنه يحييها، وقد حدثنى رجل فاضل كريم؛ فقال: لقد ذهبت لأصرف مكافأة نهاية خدمتى، وكان مبلغاً كبيراً فى هذا الوقت كان حوالى عشرين ألف جنيه، قال: وركبت الأتوبيس ومعى هذا المبلغ، ووصلت بحمد الله سالماً، لكن عذبنى ما فعلت وأخذت أضرب نفسى بيدي، وأقول: أما هان عليك وأنت تحمل هذا المبلغ الكبير أن تنادى تاكسياً، وتعطيه جنيهاً وتسلم بالباقي، ماذا لو خرمك لص بمطواة وأخذ منك هذه الثروة أو كان أستاذاً فى السرقة، فاحتال حتى سرقه منك فى غمضة عين، أو وضع على أنفك مخدراً، فرحت فى دوار، وتيه، حتى أخذه من يدك فى سهولة ويسر وإتقان، أردت أن توفر الجنيه، ولا تدري أنه كان من اليسير أن تخسر عمرك، ومكافأة نهاية خدمتك، كان يسيراً عليك أن تدفع الجنيه من أجل أن تحافظ على الكثير الذى تؤمل فيه أنت

وبناتك، وما ذلك إلا لأن الرجل قد اعتاد أن يركب الأتوبيس، وأن يدفع ثمن التذكرة وكانت فى ذلك الوقت قرشاً واحداً، أى جزءاً من مائة جزء من الجنيه رخيصة ولكن الثمن الذى كان من الممكن أن يدفعه عسير غال حلم يسير، لكن دونه أهوال من عقبة النفس.

أحلام يسيرة دونها أهوال

مثال يسير على حلم يسير دونه أهوال، هى من عند أنفسنا وهو أن يريد شخص مهاتفة شخص آخر، ولكنه يحمل جهازاً غير مشحون، وهو فى طريق لا يتسنى له فيه أن يشحنه، فهو يحمل جهازاً قد يكون غالباً ولكنه كقطعة الحجر، وقد يكون شخص آخر حاملاً جهازاً دون جهازك بكثير، لكنه مشحون، ويستطيع أن يهاتف من خلاله من يريد، كما يستطيع استقبال ما يأتيه من مكالمات الآخرين، فعند التحقيق تقول: إن جهازه - مع ضعفه ورخص ثمنه - أعظم من جهازك مع قوته ومثاقته وغلو ثمنه؛ لأنه حقق به حلمه، لكن جهازك لم يحقق حلمك برغم غلو ثمنه وندرة صنفه ومثاقته.

وقس على ذلك سيارتك الفارهة، المجهزة على أحدث نظام، المكيفة، الغالية بلا شك، النادرة ربما، ولكنك أنسييت أن تنظر فيها قبيل انطلاقك بها، وكان بها عطب قليل، تضخم حتى توقفت بك، وهى جماد لا يعرف كيف يرحمك، فهو سبب له معطيات، متى تحققت انطلق، وإذا لم يتحقق سكن وسكت، ولو فى عرض الطريق، أو فى مكان لا يليق ساعتها لا تلومن إلا نفسك، فأنت ذلك الذى صنعت الأهوال، التى بسببها لم يتحقق حلمك اليسير، وهو أن تبلغ بسيارتك ما تريد، وبلوغك بها ما تريد حلم يسير، حيث إنها معدة لمثله وزيادة، ولكنك سبب فى تعطلها، وتوقفها،

حيث أهملت النظر فيها، وتزويدها بما تحتاج إليه من ماء وغيره، وقد تكون أنسييت أن تزودها بالوقود اللازم للرحلة، فنقد وقودها، فتوقفت، ولو نظرت إلى رجل يركب حماراً، وهوبه منطلق لرأيت حماره أفضل من سيارتك؛ لأنه يبلغ به ما يريد، من الوصول إلى بيته، أو إلى حقله، أو إلى السوق، أو إلى أى مكان.

فما أكثر الصور التى تدل على أهوال تحول دون تحقيق الأحلام اليسيرة، وقد تكون هذه الأهوال بسبب الغرور فالمغتر بعقله الناقص، الذى لا علم فيه ولا خبرة يقول إذا قال له أحد: اشحن جهازك: إن به ما يكفى ويقول لمن يقول له: املاً خزان سيارتك بالوقود: إن بها ما يكفى للذهاب إلى الإسكندرية والعودة إلى القاهرة وتكون النتيجة أن الشحن يفرغ مع أول أجراس، وأن الوقود ينفذ من السيارة قبل الوصول إلى بنها فضلاً عن الوصول إلى الإسكندرية، ثم العودة إلى القاهرة وهكذا.

وقد يقول قائل حكيم: املاً سيارتك من هنا فيرد قائلًا: فى الطريق، فى الطريق، وقد يجد سائر محطات الوقود فى الطريق خلواً من الوقود.

وما كان يضره لو أنه خرج بها ممتلئة، وإن نقص منها شىء زادها من محطات الطريق، إن وجد بها وقوداً، ومن قديم قالت العرب: "أن ترد الماء بماء أكيس" أى ورودك على أماكن الماء فى الطريق، ومعك ماء دليل كياستك ورجاحة عقلك؛ فإن ذلك لا يضررك، إنما يضررك أن تتكل على الماء الذى فى الطريق، ثم تتجه إليه فلا تجده إلا قد غار ونضب عندئذ ماذا تفعل؟ وماذا تقول غير كلمات الأسى والأسف، والاعتذار، والندم ولكن بعد فوات الأوان.

كان بوسع المغرور أن يحتاط، فيشحن جهازه حتى التمام، وينظر فى سيارته قبل أن ينطلق بها، ويملاً خزائنها بالوقود، ويعد للأمر عدته، قال الله - تعالى - فى ذم المنافقين: «وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً». وما أكثر المتشبهين بأخلاق المنافقين، فى ذلك، وفى غيره ولا يزعم زاعم أن ذلك فى الجهاد والقتال دون السفر المباح فى زمان السلم؛ فالإعداد مطلوب فى كل شىء، وفى كل مجال، وفى كل سياق، ومنه إعداد خطيب الجمعة خطبته من الجمعة إلى الجمعة، حتى تخرج منه درة قد صاغها فكرة وموضوعاً نافعاً بأسلوب محكم، وبعبارة مشرقة؛ وبدليل صحيح، وهذا حلم يسير، لكن دونه أهوال هى ادعاء أن الله سوف يفتح، وهذا وهم؛ فإن الله يفتح لمن أعد وتعب، وبذل الجهد وحصل العلم.

أحلام يسيرة دونها أهوال

ما أيسر المد، وما أقصر اليد، أو كما يقول العوام من الناس: العين بصيرة، واليد قصيرة، قد يكون المرء فى حاجة إلى ساندوتش طعمية أو فول، ثممه جنيه، وهذا بالنسبة إليه حلم، قد يكون يسيراً لكن دونه أهوال، حيث إنه لا يملك هذا الجنيه، والدليل على أن عدم ملكية الجنيه من الأهوال قول الله - تعالى -: «وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا». وقول النبى - ﷺ - "كادت الحاجة أن تكون كفراً" وليس بعد الكفر أهوال، إنها الحاجة، وإنه الفقر الذى عالجه الإسلام، ومع ذلك أحبه الناس، وادعوا أنه خير من الغنى، وقالوا وقد ناموا: ربما لو اغتنيينا لأفسدنا فى الأرض، وإذا اجتمعوا على طعام لا يسمن ولا يغنى من جوع ضحكوا وقالوا: ربما لو كنا أغنياء لما اجتمعنا عليه يظنون أن الغنى سبب فى تفرقة الشمل، وأن الفقر هو الذى جمع بينهم، فهم

يقولون: اللهم أدم علينا الفقر حتى نظل مجتمعين، وأدم علينا البؤس حتى نظل ضاحكين، منطق عجيب غريب، فما الذى يمنع أن يقولوا: لو كنا أغنياء لأصلحنا، بدل أفسدنا، وقد ورد فى الحديث إنما الدنيا لأربعة نفر، رجل آتاه الله مالاً وعلماً، فهو يتقى فيه ربه، ويصل به رحمه وهذا بأعلى المنازل، ورجل آتاه الله علماً ولم يؤته مالاً فهو يقول: لو أن لى مالاً لعملت فيه بعمل فلان؛ فأجرهما سواء فلم يتمنى الفقير أن يكون مثل أخيه الفقير، وأن يظلا فقيرين حتى يدوم لقاؤهما، وتدوم مودتهما، ويدوم صفاؤهما فلم لا يدوم اللقاء، والمودة، والصفاء على الغنى، لا على الفقر لكنه الفكر الذى إذا أضفت إليه معنى الزهد غير الصحيح مع البطالة والرضا والقناعة غير الصحيحين أيضاً تبينت لك أسباب الفقر التى عالجها الإسلام بالعمل، والدعوة إلى الكسب الحلال، وإشباع غريزة الطعام والشراب والجنس عن طريق الزواج، وكذا مشروعية الزكاة، والصدقة، والتكافل الاجتماعى بمعناه العام والذى يتضمنه حديث: "من كان له فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له" وفى الصحيح: "لا يدخل الجنة من بات شبعا وجاره جائع إلى جواره وهو يعلم"، وعنه - عليه السلام - أنه قال: "أنا وكافل اليتيم فى الجنة كهاتين"، وقد سأل - عليه السلام - الصحابة يوماً؛ فقال:

أيكم أطمع اليوم مسكيناً؟

فقال أبوبكر: أنا

قال عليه الصلاة والسلام:

أيكم أصبح اليوم صائماً؟

قال أبوبكر: أنا

قال عليه الصلاة والسلام:

أيكم تبع اليوم جنازة؟

قال أبوبكر: أنا

فقال عليه الصلاة والسلام: ما اجتمعن فى امرئ مسلم إلا دخل الجنة.

وقد دعا الإسلام إلى المثالية المعقولة الممكنة حيث قال عليه الصلاة والسلام: ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود - عليه السلام - كان يأكل من عمل يده.

وقال للأتصاري الذى جاءه سائلاً، فسأله عما فى بيته، وأمره بإحضاره، وباعه له بدرهمين، أعطاهما إياه وقال له: اشتر بأحدهما طعاماً فانبذه إلى أهلك، واشتر بالآخر قدوماً وانتنى به، فلما آتاه به وضع فيه عوداً بيده الشريفة، وقال له: اذهب، واحتطب، وبع، ولا أرينك خمسة عشر يوماً، إن المسألة لا تصلح إلا لذى فقر مدقع أو لذى غرم مفظع.

وفى الحديث: "لأن يأخذ أحدكم حبلأ على عاتقه فيحتطب، ويبيع خير له من أن يسأل الناس، أعطوه أو منعوه".

ورب ذنب لا تكفره الصلاة ولا الصيام، ولكن يكفره السعى على المعاش، وفى الصحيح: من بات كالأ من عمله بات مغفوراً له، كل هذا وغيره من الأدلة على أن هذا الدين يدعو على العمل، وصون وجوه الناس عن السؤال؛ لأن فيه مذلة، وإذا عمل المرء حقق حلمه اليسير وحلمه الكبير معاً، ولم تعد هنالك أهوال دون تحقيق حلمه هذا، أو حلمه ذاك!

أحلام يسيرة دونها أهوال

دعوتك يا كليب فلم تجبني وكيف يجبنى البلد القفار

نادى الشاعر كليياً، وظل يكرر نداءه، وكليب قد دفن فى الصحراء الشاسعة، وصار سكوناً من بعد حركة، وصمتاً من بعد كلام، وقفراً من بعد وجود، لفه الموت فى ثوب العدم: فكيف يجيب من ناداه!

نعم إن الجواب بنعم لمن ناداه حلم يسير، لكن دونه أهوال هى أن الميت لا يجيب من يناديه بنعم، أو بلا مسموعة تصل إلى أذنيه، يذكرك هذا المشهد الجاهلى بمشاهد الدراما الكثيرة المختلفة حين تصرخ المرأة زوجها أو ولدها وقد مات، وتناديه قائلة: رد على، قم، كلمنى، حلم يسير، وليكن دونه أهوال، قضى الكتاب بها والسنن، ولا حول ولا قوة إلا بالله حلم يسير للحى، يود أن يرد عليه ميتة بكلمة، لكن دونه أهوال؛ فإنه لن يجيبه.

وكذلك الميت نفسه، تأتية لحظة الموت وقد يكون له حلم يسير أن يشرب جرعة ماء مثلاً، أو أن يرى ولده القادم من مكان غير بعيد، أو حتى أن يكتب وصية، بل أن يغمض عينها ويفتحها، ولكن دون هذه الأحلام اليسيرة أهوال، فما هى بمحققة أبداً؛ لقول الله - عز وجل -: ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾.

وهذه الحقيقة تجعل الذى يتفكر فى الموت يهتم بعمل ما هو فى حاجة إليه من صالح الأعمال، التى تنفعه فى الدنيا والآخرة قبل أن تهجم عليه لحظة الموت، فى أى وقت، وفى أى مكان، وعلى أية حال يكون فيها ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

وقد طالعنا كتب التراجم، ووقفنا عند رجالات من أهل العلم أدركهم الموت، وهم يكتبون، أو يبحثون، لم يمهلهم الموت حتى ينتهوا من كتاباتهم، أو بحوثهم، فالإمام مسلم دخل يبحث عن حديث، فلم يخرج، ووافته المنية، والإمام عبدالرحمن الأوزاعى عالم الشام دخل الحمام، فاختنق فيه ومات والإمام جلال الدين المحلى شرع فى تفسير القرآن الكريم فأدركته المنية عند منتصفه، وأكملة الجلال السيوطى، وسمى تفسيرهما تفسير الجلالين، وهو مشهور، والنماذج على ذلك كثيرة، أكثر من أن تحصى.

والوحيد الذى لقي ربه بعد تمام رسالته هو رسول الله - ﷺ - روى أنه حين نزلت: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ. وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا. فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾. بكى الصديق - ﷺ -، وقال: ما أراها إلا أنها نعت للنبي - ﷺ - نفسه، وقد فهم هذا منها ابن عباس - رضى الله عنهما - وهو الذى أقنع الكبار بجلوسه معهم فى مجلس عمر بن الخطاب - ﷺ - حيث استصغروه، فأراد عمر - ﷺ - أن يكتب لهم أنه أهل لمجالستهم، فسأله عن معناها وسألهم، فأجابوا بما يقتضيه الظاهر من حمد الله وتسبيحه إثر مجئ النصر والفتح، وأجاب ابن عباس بما تقدم، أنها نعى لرسول الله - ﷺ - فقال عمر: لا أفهم منها إلا الذى تفهم.

وكثير من الناس يؤجل أحلامه اليسيرة إلى أجل غير مسمى، حتى يباغته الأجل المسمى؛ فيذهب دون تحقيقها هناك مثلاً فلاح عرفته، وقد اشترى قطعة قماش، وركنها وكلما قالت له زوجته: اذهب بها إلى التزوى وفصلها قال قبيل العيد، قبيل العيد، وظل هكذا حتى جاء العيد، وهو فى زمرة الأموات، ولم يلبسها مع أنه

كان يشتهي لونها وملمسها الرقيق، كان على أمل أن يلبسها في العيد، ويا ليتة لبسها قبل العيد، وقبل أن يحين الأجل الذي لم يمهل و هيهات أن يمهل أو يمهل غيره حتى يراها على بدنه في يوم العيد وهناك من ينوي زيارة أخيه، أو زميل له قديم، لكنه يمهل تلك الزيارة، حتى يأتيه الأجل، أو يأتي من كان يرغب في زيارته، وقد كتبت ذات مرة مقالا بعنوان (بين الشجرتين أشجار) في صاحب لنا، دخل مستشفى على بابة شجرة ونقل منه إلى المقابر وعلى المقبرة شجرة، فلا رأى الأولى ولا رأى الثانية، وكان بينهما أشجار لم يرها أيضاً، حيث كان مشغولاً بما رآه أهم، وكان حلمه أن يتكى إلى جذع واحدة ويتنفس قليلاً من معاناة الحياة، وهذا حلم يسير لم يتحقق حيث هجم عليه الموت فجأة، فدون الحلم أهوال.

أحلام يسيرة دونها أهوال

﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

كان يمشى في قلب الظهيرة، والشمس في الصيف، وفي تلك الساعة كأنها عمودية على رأسه هو دون غيره من البشر والمخلوقات كان يلهث من حرارة الجو، وحرارة الظمأ، وعلى يساره بساتين هي من آيات الجمال، كان يود لو أن الوقت وقت العصر؛ فامتدت ظلال أشجارها إلى الطريق الضيقة الملتهبة التي أحرقت قدميه، وما أغنى حذاؤه البالي عنه شيئاً من لهيبها، لكنه لمح ظلمة الماء العذب في دائرة ظليلة إلا من بقع يسيرة من الشمس، وصبي هو ابن أحد الحراس يحرك يدها الحديدية ويملا من مائها العذب الصافي دلواً، تدل تحت فوهتها الأنيقة، كانت خضراء بلون الزرع، وود لو أنه مال نحوها وشرب حتى يرتوى، أو رمى بنفسه تحتها، ليتدفق الماء منها على سائر بدنه، يرطبه

من حرارته، ويواسي نفسه المعذبة من أثرها، ولكن دون ذلك أهوال؛ فإن كلاب الحراسة التي تحيط بها، وبغيرها من أرجاء البساتين المتلاصقة كالأسود، لن تسمح له بشيء من ذلك الحلم اليسير، وحدته نفسه بأن يغامر، ويلقى بها نحو الماء، ولو مزقته الكلاب، وقطعته أشلاء، لكنه تراجع، ومنى نفسه بسرعة الوصول إلى أخرى على رأس حقل لفلاح صغير لا يمنع الناس عنها، فليصبر قليلاً حتى يصل إليها، وراودته نفسه من جديد، ولكن إلى فكرة أخرى أن ينادى الصبي كي يغتبه بشيء من الماء لله، وقد فعل، لكن الصبي بادره قائلاً بما حفظه أبوه: امش أو أسلط عليك الكلاب؛ فإن هذا الماء لا يصح أن يتذوقه مثلك، فليس سبيلاً لكل من هب ودب؛ فهو للعاملين بعزبة الباشا ولكلابه، وأما غيرهم فلا، فانصرف خصوصاً بعد أن سمع أزيز صدور الكلاب يغلى، وكأنها فهمت الصبي حيث ذكر اسمها، فهمت بتنفيذ أوامره، فجرى في طريقه، وقد انتشر فيه وحوله هيرمون عجيب جعله يمد خطاه، إلى أن وصل إلى ظلمة الغلاية، فشرب حتى ارتوى، ومال إلى جذع شجرة عجوز، وأخذ يتذكر ما كان من حوار مع الصبي، وكأنه أطلق في وجهه كل كلاب الباشا.

كان الرجل يحلم حلماً يسيراً، ولكن حالت دونه أهوال، نستطيع أن نسميها شح النفس وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

إن شح النفس من أخطر الأهوال التي تواجه مثل هذه الأحلام اليسيرة، وقد روى مسلم في صحيحه أن مانع فضل الماء لا يكلمه الله يوم القيامة، ولا ينظر إليه، وله عذاب أليم، وقد مدح ربنا - تعالى - الأتصار، حيث قال: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يَحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا

وَيُؤْتِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنَفَهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٤٨﴾

وقد نزلت في أنصاري أضاف ضيف رسول الله - ﷺ - تركه في المسجد، ثم ذهب إلى أهله؛ فسأل امرأته: هل عندنا الليلة من طعام؟ فقالت: لا طعام عندنا إلا طعام الصبية؛ فأرشدتها إلى أن تشاغلهم حتى يناموا دون عشاء، ثم تقوم متظاهرة أنها تصلح السراج، فتطفئه، ثم تجلس إلى جنب زوجها ويتظاهرا بأنهما يأكلان ولا يأكلان، حتى يشبع ضيف رسول الله - ﷺ - وقد كان، فلما أصبح، قابله بالبشر رسول الله - ﷺ - وبشره بأن الله قد ضحك (رضي) بسبب ما فعله الرجل وامرأته وأنزل فيهما قرآنا يتلى إلى قيام الساعة، فانظر إلى مثل هذا الأنصاري، وانظر إلى مثل هذا الباشا الذي كان بوسعه أن ينشر الماء، يسوقه في طيبات بساتينه لكل من يمشى على ظمأ، يرتوى وهو حلم يسير، يكون إثره بركة الله في الدنيا وحسن ثوابه يوم القيامة، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم!

أحلام يسيرة دونها أهوال

لو بالعين

قال كما قالت كلمات الأغنية: لو بالعين أنظر حبيبي، فقط يود من بعيد أن يراها، حلم يسير، لكن دونه أهوال، وقد يظن ظان أن حبيبته تحت التراب في زمرة الموتى، أو يظن أنها في بلد بعيد، ودون السفر إليها مفاوز، وجبال، وأهوال، وليس من سبيل إلى الوصول إليها، أو يظن أنها هامت على وجهها، وضلت بها الطرق الوعرة، أو المعبدة، لكن لا يدرى لها عنواناً، وقد يظن أنه هو قعيد الفراش، به شلل، لا يقوى على الحركة حتى باب منزله أو

منزلها، أو غير ذلك من الاحتمالات المتوقعة أو غير المتوقعة، عندئذ تكون هنالك أهوال حقيقية من صنع القدر، والله يفعل ما يشاء، لكن ذلك كله غير وارد في تلك الحالة، إنها قريبة منه، وقد أصبح منها محروماً بعد أن كانت زوجته، حليلته التي بالعين يراها، وباليدي يلمسها وغير ذلك، لكنه طلقها؛ فبت طلاقها، وانقضت عدتها منه، وتزوجت غيره، واستقرت بها الحياة، وطابت نفسها لزوجها الثاني، وطابت نفسه لها، والآن صارت حلوة بعد أن كانت مرة، أي صارت نفيسة بعد أن كانت رخيصة، وصارت جميلة بعد أن كانت دميمة، وصارت مرغوباً فيها بعد أن كانت مزهوداً فيها كانت ملء السمع والبصر لمن رآها من أهله وأرحامه، ما عداه، فلم تملأ له سمعاً ولا بصرًا، كانت في بيته لكنه رآها أبعد ما تكون، وقد صارت بالفعل أبعد ما تكون، وإن كانت قريبة، الآن يريد أن يراها فقط بعينه وما أكثر الذين يحلمون مثل هذا الحلم اليسير الذي دونه أهوال، هم الذين صنعوها بأيديهم، فمثل هذا الرجل الذي ود أن يكون مجرد ناظر إلى امرأة، صارت بالنسبة إليه أجنبية، وقد كانت أقرب الناس إليه، كان بوسعه أن يراها كاسية وأن يراها عارية، وأن يدعوها إلى فراشه، وأن يحيطها بذراعيه، وأن يدنو منها إلى الحد الذي يريد دون أن يكتم أنفاسها، أو يقتلها، لكن ذلك كله لم يكن إنما كانت مهملة، مهجورة، هجرها، في حجرتها، ونام عنها بعيداً، حتى عند تناوله الطعام، لم يكن ليأكل معها وقد جفاها وكم رجته أن يبقى عليها، وألا يطلقها، وأن تحيا إلى جواره خادمة، لكنه أبى، يذكرني هذا بما قاله الفرزدق الشاعر الأموي الكبير، بعد أن طلق زوجته نوار حيث قال:

ندمت ندامة الكسلى لما بدت منى مطلقة نوار
وكانت جنتي فخرجت منها كآدم حيث أخرجته الهذار

فكنت كفاقي عينيه عمداً فأصبح لا يضي له النهار

وكم من فاقى عينيه عمداً، يندم إثر ذلك ندم العمر، حيث وجب عليه الظلام، بعد أن كانت عيناه تبصران، أى بعد أن كان فى النور، ومن ذلك التعسف فى الطلاق الذى صار بشعاً من أول الخطبة، والولد الحدث يحلف بالطلاق، ومن بعد عقد الزواج (القران)، ومن بعد البناء (الدخلة) بأيام وعلى مدى العمر، فى الطلعة والنزلة حلف بالطلاق، وفى الحوار العادى، وفى المجادلة، وفى الخصومة والرضا، وما من شرط إلا وهو معلق على الطلاق، يقول لها "إن خرجت فأنت طالق، وإن كلمت فلانه فأنت طالق، وإن حركت هذا الشيء فأنت طالق، وإن زرت أمك فأنت طالق، أهذا خلق المسلم الذى يعلم أن الطلاق لا يكون إلا إذا استحالت الحياة، والحياة تستحيل بين الزوجين إذا ما كان هناك نشوز وإعراض من جانبها أو من جانبها ولم تفلح وسائل الإصلاح، قال الله تعالى: ﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ﴾. وقال سبحانه: ﴿وَإِنْ أَمْرًا خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾. وقال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾.

ولا تكون مستحيلة لمجرد خلاف فى رأى، أو إبداء وجهة نظر، أو غير ذلك من الأمور التى يمكن أن تستمر معها الحياة.

أحلام يسيرة دونها أهوال

قال رب السيف والقلم محمود سامى البارودى:

يا حبذا جرعة من ماء مخيبة وضجة فوق برد الرمل بالقاع

انظر إلى هذا الحلم اليسير، شربة ماء من ترعة، وضجة فوق الرمل البارد فى القاع، لا فى القمة، ولكن دون هذا الحلم اليسير أهوال، حيث كان الشاعر فى المنفى، يبث حنينه وشوقه إلى بلاده وقليل منها يشفيه، ويبل صداه، ويأسو جرحه، وبمثل ذلك قال شاعر المهجر يخاطب بلاده قائلاً:

يا بلادى أرشفينى قطرة كل ماء غير ما فيك كدر

وهذا الحلم اليسير دونه أهوال، ولكنها أهوال معقولة، لأن المسافات بعيدة، والمفاوز شاسعة، والسجون حصون، والحراس أسد، والقوانين ظالمة، مسكين ذلك الحالم، الذى يحلم الحلم اليسير، ولكن دون حلمه أهوال، لا يستطيع اجتيازها، ولا يقوى على افتتاحها مكبل فى أغلال الظلم والطغيان، وبرغم هذا يشعر بانطلاق الوجدان نحو الأوطان، لا يرجو منها أن يكون عليها ذا جاه وسلطان، وإنما يرجو منها موافاته بجرعة ماء، وأن يتمكن من ضجة هنيئة فوق برد رملها فى قمة القاع لا فى قمة الربا، أو فى عليا الأماكن، مسكين ذلك المنفى البعيد الذى طرح كما تطرح الأشياء فى مكان بعيد، وقد كان قريباً منها، يعيش على أرضها ذات الطول والعرض، وقد دافع عنها، وعن حربتها، وكرامتها، ورأى المعتدى أنه خطر عليه؛ فنفاه بعيداً عنها، وأقصاه، وهو لا يدرى أنه ازداد منها قريباً، ولها حبا، وبث شوقه شكراً عاش من بعده، وسوف يعيش، يبعث الأمل ويرسل النور فى طريق العاشقين للأوطان إلى آخر الزمان ليكونوا امتداداً له فى جهاده، ونضاله، وإن كان مصيرهم مثل مصيره.

ولكن هنالك أهوال غير معقولة، أهوال يضيعها الإنسان بحمقه وجهله وغبائه؛ فلا عذر له، إن لم يتحقق حلمه اليسير،

ومن ذلك مثلاً خصومته لأخيه، ابن أمه وأبيه، أما سمعت رجلاً يقول فى حلمه اليسير إنه كان يأكل مثلاً صنفاً من صنوف الطعام عند أخيه، لا يأكل مثله فى أى مكان فى الدنيا، وأن الظروف (الأحوال) حالت بينه وبينه، فإن سألته قال: بينى وبينه خصومة، وقص عليك قصة الخصومة، وما كان فيها، وما كان بعدها من هجر وقطيعة دام سنوات، وهو لم يذكر فى تلك المدة شوقه إلى أخيه ابن أمه وأبيه، وإنما ذكر ذلك الصنف من الطعام الذى يشتهي، ويعدده أخوه، أو امرأته، أو أحد من ولده، ولا بأس بهذا، لكن ما الذى يحول دونه، وهو بوسعه أن يتصل به، وأن يعود إليه، ويزوره، ويأكل عنده مشتتهاه.

فضلاً عن كون الهجر فوق ثلاث، فقد روى فى الصحيح أنه - عليه السلام - قال: "لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يهجر أخاه فوق ثلاث، يلتقيان؛ فيعرض هذا، ويعرض هذا، وخيرهما الذى يبدأ بالسلام".

فما الذى يمنع أن يبدأ أخاه بالسلام، إنها النفس الأمارة بالسوء، التى تحول دون أن يتحقق هذا الحلم اليسير، ما كان أيسر أن يتحقق هذا الحلم، لو أنه اتبع الهدى لا الهوى، والهوى تيار جارف، يقذف بالمرء فى مهاوى الإحباط، الذى يظنه فوزاً وانتصاراً، وغلبة، كأنه فوق أخيه، وفوق الظروف، وفوق الدعوة الطيبة إلى الله عز وجل، يفخر بذلك أحياناً، ويقول: أنا الحياة، وأنا الدين، وأنتم لا تعقلون حياة، ولا تفقهون ديناً أى دين يجبرنى على أن أعانق أخى وأصالحه وهو الذى أكلنى، وظلمنى، واستولى على ميراثى، وشتّم زوجتى وأهاننى، وفعل كذا وكذا، إنه يرى الدين وفق هواه، وهواه أن يقتل من قتله، ويضرب من عذبه، ولا يصل إلا من وصله؛ فإن قلت له: إن مكارم الأخلاق التى بعث من

أجل إتمامها رسول الله - عليه السلام - وهى أن تصل من قطعك، وتعطى من منعك، وتعفو عمن ظلمك.

قال لك: كان هذا أيام زمان، أو قال لك: كان هذا عند الأنبياء ولم يقتنع منه بشيء، وهو فى الحقيقة مريض ضعيف، يكفى أنه ذو حلم يسير، لكن دونه أحوال، ما صنعتها الأقدار كالتى عاشها شعراء المنفى، ولكن أحوال صنعها بغبائه وحمقه!

أحلام يسيرة دونها أحوال

كلما نظرت إلى الصحراء الشاسعة التى تحيط بالعاصمة القاهرة على بعد مسافة بعيدة من الشرق، ومن الغرب قلت: ما الذى يمنع أن تبني هنا مساكن يسيرة، تليق بالناس الكرام، وتخفف من عنت التكسب والزحام، أو لماذا فكرنا طويلاً فى نقل الوزارات إليها، وغير ذلك، ثم نامت الفكرة التى هى حلم يسير ولكن دونه أحوال، وتلك الأحوال نبعت من تعسف فى اللوائح والقوانين، وسوف تظل صحارينا الشاسعة، ومواردنا العظيمة تضحك سافرة منا، وتشكو بثها وحزنها إلى الله الذى استعمرنا فيها، ولكننا تركناها دون إعمار، وسوف نظل نعانى، ومن أسوأ المعاناة ما نسمعه من فلسفات وتحليلات غريبة، صادقة كانت أو كاذبة؛ منها أنها سياسة الإذلال للشعب الضعيف، وقد استولى على شيء عظيم من تلك الصحارى رجال أعمال، لم تقف أمامهم تلك الأحوال، بنوها فيلات وقصوراً، وشققاً عظيمة بالملايين للقادرين، مالكي السيارات الفخمة والقادرين على أن يأكلوا ويشربوا من الهياجر الراقية، والدريفلى الذى يوصل إليهم طلباتهم حتى أبواب منازلهم، أما عامة الناس الذين نودى عليهم ذات يوم بنداء: ابن بيتك، فما بنوا بيوتهم، وما وجدوا إلى الحياة الكريمة سبيلاً.

ومنهم من لم تصبه القرعة، وما أدراك ما القرعة؟ ومن الناس من عرف الطريق إلى القرعة، فاستولى على مساحات، وباعها لمشتاق يجرى وراء القرعة، ويحصل منه على مبالغ عظيمة، تركنا الناس، يتاجر بعضهم فى بعض، ويأكل بعضهم بعضاً، وكان بوسعنا أن نربح الجميع، ونريح الجميع، بأن نحكم بالعدل ونعطى الجزل؛ لأنه متوفر بين أيدينا، فبوسعنا أن نبني وبوسعنا أن نوسع على الناس، لكن اللوائح الظالمة والعقول الجامدة أهوال ليس مثلها أهوال، إنها أهوال الرضوخ إلى واقع بغض نحن صنعناه بأيدينا، وبمقدورنا أن نغيره لأنه ليس تنزيلاً من عليا السماء، حتى نقول: لا تبديل له.

وانظر إلى شيء عجيب من تلك الأشياء الغريبة وهي التطوع، شخص يريد أن يتطوع بمبلغ من المال من أجل مؤسسة حكومية، لكن اللوائح تقول: لا بد أن يقبل رئيس العمل الكبير هذا التطوع، وبعد أن يقبله سيادته يأت بما يريد أن يتطوع به، دخل شخص كريم إحدى الكليات، ووجدها بالية، فى حاجة على صنادير مياه، وإلى مراوح حيث شدة الحر التى تعصر الطلاب، وإلى وسائل إيضاح، وسأل عميد الكلية كم يتكلف ذلك؟ فقال: حوالى ثلاثين ألف جنيه فقال: أنا على استعداد الآن.

فاعتذر عميد الكلية، وقال: لا بد أن نكتب طلباً إلى رئيس الجامعة كي يوافق على قبول تبرعك، فنظر إليه الرجل، وقال: وهل هناك ما يمنع من قبول تبرعى؟ قال: لا، لا شيء يمنعه، وإنما هى اللوائح! فخرج الرجل ولم يعد بينما كتب العميد إلى رئيس الجامعة، وجاء الرد من إدارة الجامعة بقبول التبرع، ولكن بعد فوات الأوان، حيث مضى المتبرع إلى غير رجعة، فمن ذا

الذى يقبل مثل هذا المنطق الغريب الذى يفوت الفرص، ويضيع الآمال، ويخيّب الرجاء إن هذا الحلم اليسير على المتبرع، والعظيم عند المتبرع من أجله لم يتحقق بسبب اللوائح التى هى أهوال نحن صانعوها، وكان بوسعنا أن نغيرها، كالفتوى الشرعية التى هى من الدين، وتتغير بتغير الظروف والأماكن والأحوال أنتغير الفتوى وهى شرع، ولا تتغير اللوائح والقوانين التى هى من صناعة البشر، هذا أمر عجيب، وسوف يزداد مع الأيام عجباً حتى ينفجر فى الناس ثورة عارمة تعصف به، وبغيره وعندئذ يسيطر الدخلاء الذين تسموا بالبلطجية ليحطموا كل شيء، ويهدموا كل بناء، ويحرقوا كل أخضر ويابس، وساعتها عندما نريد إعادة البناء من جديد سوف نواجه أزميتين: الأولى: المال الذى هو غير متوفر، والثانية: اللوائح الظالمة. التى قد تقف دون إتمام البناء وإن توفر المال عن طريق هذا التبرع، الذى تقف دونه أهوال اللوائح!

أحلام يسيرة دونها أهوال

أن تردى عليه السلام؛ إن عز عليك أن تتصلى به من تلقاء نفسك، هكذا قال الابن لأمه فى شأن أخيه الذى خاصمته وحلفت بوكيد الأيمان ألا تكلمه عمرها؛ لأنه أساء إليها، وأثر زوجته ذات ليلة عليها، مع أنه طول عمره بار بها، ويؤثرها على نفسه، ويتمنى الرضا لها كي ترضى، لكنها أخذتها العزة بالإثم؛ فحرمته على نفسها، وحرمت عليه بيتها، وقالت: ليس هذا بابنى، إنه ابن حماته السيئة، فما هذا بولدى الذى حملت، وطفلى الذى ربيت، وشابى الذى أعنت وزوجت، حاول ابنها أن يعتذر، وإن كان يرى أنه لم يفعل شيئاً يستحق عنه الاعتذار، ولكن إلى أين الفرار، وقد

ركبت والدته رأسها، وأيقنت أنه مجرم، لكنها لم تقبل عذره، وساق إليها أحببها من الأقارب والجيران، والصواحب، ولكن لا فائدة، كان يتصل بها من خلال الهاتف الذى اشتراه من أجلها فى آخر عيد أم وعز عليها ألا ترد عليه، فقال لها أخوه، إن لم تتصلى به أنت، وتسامحيه، فردى عليه، وبلى صداه، وارجمى قلبه، وضعفه، فأبت إلا العناد، وأصرت على الجفاوة.

فانظر إلى هذا الحلم اليسير الذى دونه أهوال من نفس جبلت على عدم التسامح، وعين جبلت على الجمود لا من شدة الحزن، وإنما من شدة الجحود، قاسية تلك الأم على الرغم من طبيعة الأمومة الناطقة بكل معانى الحب والدفء، والرعاية، والحنان، لكنه الغباء الذى يسيطر على عقول الأبناء والأمهات الذين يتناسون أصلهم الأصيل من العطاء والرحمة؛ فإذا بهم قساة القلوب، غلاظ الطباع مع أبنائهم وبناتهم، ومنهم من يميل إلى ولد دون أخيه حتى يشعر المعروض عنه بأنه ربما يكون لقيطاً، وجده هذان الوالدان أمام باب مسجد، أو فى خرابة، وربياه لوجه الله- تعالى- وليس على الوجه الصحيح، وإنما على ما قسم، أى يرحمانه حيناً، ويعذبانه كثيراً؛ فهو يسأل نفسه دائماً: لماذا أنا؟ وهذا من قديم موجود، ألا ترى إلى قول الشاعر:

وإذا تكون كريمة أدعى لها وإذا يحاس الحيس يدعى جندب

وجندب هذا أخوه، وقد جرت عادة أمه أنه كلما حدثت مصيبة أو كارثة دعتة هو، وإذا أعدت طعام الحيس (مثل العصيدة) دعت أخاه جندباً، فهو يتعجب لذلك، فلو أن أمه دعتة ودعت معه أخاه عند المصائب، وعند الطعام لما تعجب ولو أنها دعتهم عند

المصائب، ولم تدعهما عند الحيس ولا عند غيره من صنوف الطعام، وأكلت وحدها لما كان هناك من عجب أيضاً، إنما العجب من هذه التفرقة.

وقد حكى لى شابة جامعية بأنها ابنة وحيدة مات عنها أبوها، وعن أخويها وأمها، وأن أمها تعاملها معاملة لم تصل إلى مستوى الخادمة فهى فعلاً خادمة، وقد كان يوسعها أن تكون خادمة سعيدة، لو أحسنت إليها أمها. وأحسن إليها أخوها، ولكنها خادمة تعسة حيث تبذل قصارى جهدها دون نظرة امتنان، أو كلمة شكر، تقول إذا عطس واحد من أخوى قامت الدنيا عند أمى ولم تقعد حتى تذهب به إلى طبيب، وتأتيه بالدواء، وتسهر على راحته، وتأمرنى بأن أكون تحت قدمه، وإذا مرضت أنا بأشد ألوان المرض، وتكسرت عظامى، ونمت طريحة الفراش، لا أقوى على الحركة قالت: قومى يا مقصوفة الرقبة، ولم تصنع لى كوب ليمون ولم ترفع يديها إلى السماء تدعو الله- عز وجل- لى بالشفاء مثلاً تفعل مع أخوى إذا مرضا، أقول فى نفسى: حتى الدعاء عزيز على أمى أن ترفع صوتها به لتسمعنى وتشعرنى بأنى ابنتها، وإذا جلسنا معاً إلى الطعام فالويل لى إن لم أضع الماء البارد أمام أخوى، وإن لم ألحظ أن الإساءة التى أمام أحدهما أوشك أن يكون فارغاً، وعلى أن أعرف له من جديد، وذات مرة وقد كنت متعبة مجعدة قلت: هلا ساعدنى أحدكما فى غسل الأوانى؛ فصاحت أمى قائلة: أبك جنون يا بنت! قطع الله لسانك يا غبراء، يا ملعونة، يا كذا، وأخذت أبكى بمرارة، وغسلت الموائع بعد أن سمعت من أمى سوف تغسلينها ورجلك فوق رقبتك، وقد صارحتها يوماً بأننى لست ابنتها؛ فضربتني ونهرتني فسألتها بالله إن كنت حقاً ابنتها فلم تعاملنى تلك المعاملة السيئة فلم تجد جواباً.

أحلام يسيرة دونها أهوال

من أجمل ما روى عن عمر -رضي الله عنه- أن رجلاً قال له: لقد طلقت امرأتى اليوم ألف مرة، فقال له عمر: نكتفى من الألف بثلاث، ولن ترجع إليك، ومعروف أنه -رضي الله عنه- كان يمضى الطلقات الثلاث فى المجلس الواحد ثلاثاً، كما تساهل الناس فى مسألة الطلاق وقد ورد عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه كان يشدد على من طلق امرأته ثلاثاً، قائلاً له: إن الله -تعالى- أعطاه فرصة أن يطلق مرة، ثم يعود، ثم يطلق، وقد يندم، فيعود، فلم يضيق على نفسه، وبیت طلاقها مرة واحدة؟

ويسير جداً أن يرجع المطلق، أى يراجع زوجته بعد الطلاق الأول، أو الثانى، ولكن إذا طلق بعد هذا فدون ذلك أهوال، إذ إنها لا بد أن تتزوج غيره، قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾.

وهذا هو المعروف عند كثير من الناس بالمحلل، ولا شىء اسمه محلل، إنما الشرع على أنها تتزوج من بعده بنية استمرار العشرة بينها وبين هذا الأخير، لكن شاعت الظروف والأقدار أن تطلق منه، أو يموت عنها، وبعد أن تستوفى عدتها من طلاق، أو من وفاة يصح أن ترجع إلى هذا الأول الذى طلقها ثلاثاً، فبت طلاقها، ولكى أشرح هذه العبارة أقول لو أن رجلاً اسمه خالد طلق زوجته زينب ثلاث مرات فإنها لا تحل له، بعد هذه الثلاث، وانقضت عدة زينب، فتزوجت من بعده رجلاً اسمه عبدالله، وعاشت معه، بنية الأبد، لكن عبدالله طلقها. ولم يراجعها، حتى انقضت عدتها، وعادت إلى بيت أهلها، وعلم خالد أنها طلقت؛ فقال

الحمد لله، والله لقد ندمت على طلاقها منذ عشر سنين، وهاهى الآن قد تزوجت ثم طلقت، ولم ترجع إلى زوجها، وأنا أحب أن أتزوجها وأرسل إليها برغبته هذه، وعقده العزم على أن يقيم معها حدود الله، وألا يسئ عشرتها، وألا يبخل عليها وكذا وكذا، فمن الجائز شرعاً أن تقبل، وإذا قبلت ورجعت كانت هذه الزيجة كأنها التى كانت أول مرة، أى أنه إذا دخل بها، ثم طلقها كانت هذه هى الطلقة الأولى، لا الرابعة.

ولا بد أن يدخل بها الزوج الثانى عبدالله، لما رواه البخارى وغيره من حديث امرأة رفاعة، التى طلقها وبت طلاقها، فتزوجت من بعده عبدالرحمن بن الزبير، وأرادت أن ترجع إلى زوجها الأول رفاعة؛ فقال لها -رضي الله عنه- لا حتى تزوقى عسيلته، ويزوق عسيلتك، وعبر عن البناء بالعدل بجامع الحلاوة فى كل، هذا هو صحيح الدين.

وانظر إلى الرجعة كم هى سهلة يسيرة إذا كانت الطلقة هى الأولى أو الثانية ولم تنقضى مدة الأشهر الثلاثة عليها، فإن انقضت هذه المدة أى مدة العدة، وكانت الطلقة الأولى، أو الثانية فتصح الرجعة ولكن بعقد جديد، ومهر جديد، وبرضاها، أى أن الأمر سهل على وجهه ويزداد صعوبة كلما مر الوقت، وتكون الأهوال إذا تجاوز المرء الحد، وبت الطلاق، عندئذ تصبح الرجعة التى كانت سهلة يسيرة أمراً صعباً، فما الذى أدراه أنها سوف تطلق، أو يموت عنها، وهل يشعر بشىء من السعادة والسرور وقد نامت زوجته (التي كانت زوجته) فى حضن رجل آخر، وعاشرها وباشرها وقد تحسر قيس عندما تزوجت ليلى، وخاطب زوجها بقوله:

بربك هل ضمنت إليك ليلى وهل قبلت قبل الصبح فاهما

وكان لنا زميل أديب طريف كلما ذكر هذا البيت قال ضاحكاً على لسان زوج ليلى:

نعم نعم، يا قيس، وأكثر من هذا ورب الكعبة

فما الذى أدى إلى هذه الأهوال؟

إنها الرعونة فى استعمال الطلاق، والحمق الذى يسيطر على عقل الرجل أو المرأة، أو على كليهما، حين يتصور أن فى الطلاق حلاً، ومعالجة لغضبه وانفعاله، فلا صبر عنده إذ يطلق لأدنى ملامسة، ولا صبر عندها إذ تسأله الطلاق لأول صدمة، أو مشكلة، والناس خصوصاً الشباب فى حاجة إلى ثقافة طلاق كما أنهم فى حاجة إلى ثقافة زواج يحقق المودة والرحمة فى ظلال سكن جميل تطيب فيه الأيام، وتتحقق فيه الأحلام.

أحلام يسيرة دونها أهوال

فقد الثقافة الدينية الصحيحة:

قال لى: خطبتها وهى جامعية حاصلة على تقدير "ممتاز" مع مرتبة الشرف، وصادف أن صليت فى بيتهم العشاء، وسرني أنها جاءت خلفى، وصلت ورائى، فاستشعرت كل معانى السعادة، وخطر ببالى لمدة ثوان أننا تزوجنا، وأنجبنا أطفالاً بررة صالحين وأنهم الآن جميعاً ورائى معها، وأنا إمامهم، وجلست فى الركعة الأخيرة، للتشهد، وبينما أنا فى التشهد لمحتها مرت من أمامى - على مسافة لا تقطع على صلاتى، وبعد أن سلمت سألتها: هل كنت

تصلين ورائى أم أن ذلك طيف ألم برأسى؟ فقالت: نعم، صليت وراءك، قلت: كيف، وأنا لم أزل أتشهد ولم أسلم؟

قالت: يبدو أن قراءتك بطيئة، أنا انتهيت، وسلمت هل من اللازم أن أظل قاعدة حتى تنتهى أنت! قلت: طبعاً، قالت: لا أدري، إن الذى أعرفه أن الذى يفرغ من الصلاة يسلم، ولا ينتظر.

فسألتها: هل شاهدت المصلين فى المسجد إذا انتهوا سلموا وخرجوا، وتركوا الإمام؟

قالت: هذا فى المسجد، ونحن فى البيت، وأعتقد أن هناك فرقاً بين المسجد والبيت؛ فقلت: والله، ليس هناك فرق بين المسجد والبيت، فالجماعة هى الجماعة فى كل مكان.

ويعلم الله أن ورقاً من شجرة حبى لها قد تساقط؛ وجف حلقى وقلت: سبحان الله، هذه جامعية، والأولى على دفعتها ولا تعرف كيف تصلى الجماعة.

وأخبرنى آخر أن زوجته كانت تدركه فى الصلاة، فإذا سبقها بركعة صلتها وحدها وراءه بسرعة ثم التزمت فى الاقتداء به، يعنى أنها لا تعرف طريقة الجماعة أيضاً حين تكون مسبوقة، وأنه ظل يعلمها كيفية صلاة المسبوق سنوات ولا يدري إن كانت قد تعلمت أم لا، كل ما استطاع فعله أن يغرم عليها أن تصلى معه من أول تكبيرة الإحرام، حتى لا تكون مسبوقة.

وفى هذين المثالين أقول: إن المأموم لا يسبق الإمام فى ركوع ولا فى سجود، ولا يساويه، ولا يخرج من صلاته قبل أن يسلم الإمام أولاً، وصلاة المسبوق طريقها أن يكبر المأموم المسبوق تكبيرة الإحرام، ثم يلتزم الاقتداء بالإمام فى أى وضع

كان، فإن أدركه ساجداً سجد، أو قاعداً قعد وتبعه حتى ينتهي، فإذا سلم قام وصلى ما فاتته من ركعة أو أكثر، وتحتسب له ركعة إذا أدركه في الركوع، ولا تحتسب له ركعة إذا أدركه وهو ساجد، أو قاعد بين السجدين، وهكذا.

انظر إلى الأمر كم هو سهل، ولكن دونه أهوال من فقد الثقافة الدينية الحقيقية، والمأساة أن الذين يفتقدون تلك الثقافة كما ترى من حاملي الشهادات العليا في التخصصات الدقيقة الصعبة، فهموها وتفوقوا فيها، وعز عليهم أن يفقهوا دينهم، لا سيما الصلاة التي هي عماد الدين. وركن الإسلام الذي لا يسقط إلا بزوال العقل. فعلى المسلم أن يصلى مقيماً ومسافراً، وصحيحاً ومريضاً (قاعداً أو مضطجعا) حتى في ميدان القتال (صلاة الخوف) يسير أن تصلى، في جماعة، ويسير أن تصلى مسبقاً، ولكن دون ذلك أهوال هي فقدك المعرفة، وهي - جد يسيرة - إذا صدقت نيتك، ورغبت في المعرفة.

ويسير عليك أن تتوضأ قبل الصلاة بوقت كاف حتى تدرك أول الوقت، وأول الوقت فضيلة عظيمة، سئل النبي - ﷺ - عن أحب العمل إلى الله؛ فقال لسائله: الصلاة على وقتها، وهناك الكثير من الناس بوسعهم أن يدركوا أول الوقت، وقد سمعت من أكثر من واحد، وقد دعى إلى إقامة الصلاة في أول وقتها، وكان يجلس مع داعيه في محل بالقرب من زاوية صغيرة اعتاد جليسه أن يصلى فيها؛ فاعتذر لأنه غير متوضئ، فلما قال له: إن بالزاوية مكاناً للوضوء قال: إن شاء الله أدرك الوقت في البيت حتى أتوضأ على راحتى، وأخلع ملابسى، وكذا، وليس به مرض يمنعه من المحافظة على وضوئه، فليس سلسل البول. ولا يشكو خروج ريح

مكرر، فما الذى يمنعه أن يخرج من بيته على وضوء، والوضوء سلاح المؤمن، وقد روى أن عرش الله - عز وجل - اهتز لموت سعد بن معاذ - رضي الله عنه - لأنه كان لا ينام إلا على وضوء، ولا يمنع المرء من إدراك أول الوقت إلا كونه غير متوضئ، فلو كان على وضوء لصلى في أى مكان حيث أدركته الصلاة: فقد جعلت الأرض للنبي ومن آمن به مسجداً وطهوراً.

أحلام يسيرة ولكن دونها أهوال

١- ثقافة السوء:

ذكر القرآن الكريم دعاء الكفرة الفسقة، حيناً قالوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم" كان من اليسير أن يقولوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه ووفقنا إلى إتباعه، لكن دون هذا اليسير أهوال من ثقافة السوء ألا ترى إلى ما شاع بين الناس من الدعاء على أنفسهم وأهلهم وأموالهم بالسوء من العمى، والشلل، والبرص، والخرص، وغير ذلك، ثم ألا ترى إلى تنشئة الأطفال على ثقافة السوء التي منها ذلك المتوارث البغيض: من يكذب يدخله الله النار ما فكر أحداً أن يقول لطفله: من يصدق يدخله الله الجنة وألا ترى هذا الخطيب الذى يعتلى المنبر أيام الجمعة وكأن المنبر الذى اعتلاه قطعة من الجمر تلهبه، فهو لا يخطب إلا فى النار الموقدة التى تطلع على الأفئدة، ويصلى بيوم تقول لجهم هل امتلأت وتقول هل من مزيد، ويكررها حتى يبكى، ويبكى الناس.

ناهيك بالمبالغة فى دعاء السوء الذى لا يعدل بحال من الأحوال ما اقترفه المدعو عليه، بأن يمد طفل مثلاً يده إلى شىء

صنعتة أمه، فإذا بها تدعو عليه قائلة: قطع الله يدك، ولم يعهد في التاريخ ولا في الشرع مثل هذا الدعاء إلا على من قتل مسلماً بيده أو سرق، أما الطفل الذي لا صبر عنده. فإذا به بمجرد أن يمد يده إلى شيء يأكله فلا يدعى عليه بحال، لا بقطع يد، ولا بقطع إصبع، وإنما الواجب علينا أن نعطيه قبل أن يسأل، فقد كان الناس يأتون رسول الله - ﷺ - ببواكير فاكهة المدينة، فيفرح، ويتذوقها ويدعو، ويعطى بغيته أصغر من في مجلسه، كما روى مسلم في صحيحه، وقال الإمام النووي في ذلك: لأن الأطفال لا صبر عندهم.

ومن اليسير أن تتأسى به - ﷺ - في ذلك وفي غيره من السنن الراقية التي تغير وجه الحياة من قبح إلى حسن، أى من اليسير أن نعطي الطفل مما يراه ويتطلع إليه قبل أن ينفطر، وينفلق كبده؛ لأنه لا صبر عنده، لكن دون ذلك أهوال من ثقافة السوء، كما أنه بوسع الزوجة أن تتاول زوجها أو ولدها كوب ماء، وقد سمعت صوت غصة في حلقه وهو يأكل (زور) لكنها تنتظر حتى يقول (ماء) بصوت بغيض، فتناوله إن لم تقل له: هاهو ذا الماء أمامك، وهو منك قريب، ألا تراه، فإذا به بعد أن يشرب، وتزول الغصة يضربها أو يقوم من على طعامه دون أن يكمل وجبته، ومن اليسير أن تتعطف على رجل توقفت سيارته وأنت تراه يدفع بها وحده ويمسك بعجلة القيادة ويحاول أن ينطلق موتورها، لتدفعها معه أنت وغيرك لكنك لا تتعطف إلا إذا ناداك، ورجاك وكثير من الناس لا يفعلون أدنى الخير إلا إذا سئلوا، ويعلمون ذلك بأن سائلهم ربما ضايقه ذلك؛ فهو حر، وهو صاحب فلسفة، قد يكره مثلاً - وهو والله لا يكره - أن يعينه أحد في دفع سيارته المعطلة، وقد تقول زوجة لزوجها الذي أصيب بالغصة، وسألها الماء: إنك قلت بأنك لا تحب شيئاً من يدى، وقد قال ذلك

في لحظة انفعال منذ عشر سنين، توارت كل الحسنات، وتنوسيت، وتذكرت هذه العبارة السيئة، وكان من اليسير عليها أن تنساها أو تتناساها لكن دون ذلك أهوال من ثقافة السوء التي تسيطر على كثير منا، فلا يستطيع فعل الخيرات، وهي ميسرة.

بل إن من الناس من يعتذر وهو كاذب، كالذى يدعو صاحب السيارة المعطلة إلى معاونته فيقول إن بذراعى داء (أبعد الله عنك كل داء) وكالذى يعتذر لداعيه إلى رفقته في صحبة طيبة إلى فعل خير بأنه مريض، أو مشغول، أو أن أحداً من أصهاره قادم إليه في ذات الوقت الذى يدعو فيه، وهو (لا أراه الله) غضوب، ويصنع من الحبة قبة، وقد ينخرب البيت إن لم يجده فى انتظاره، وأن الدنيا سوف تذهب برمتها، وهو أى داعيه لا يرضى له الضرر، وكان بوسعه أن يلبي دعوته، وأن يجمع بينها وبين استقبال زائره إن كان فعلاً هنالك زائر، لكنها ثقافة السوء التي تحول دون تحقق الحلم اليسير.

أحلام يسيرة دونها أهوال

٢- ثقافة السوء (ذكر السيئات).

ما أسهل أن تذكر الحسنات كما تذكر السيئات، لكن دون ذكر الحسنات أهوال من ثقافة السوء، التي تجعل ذكر السيئات يطفو فوق الذاكرة، ويتغلب على ذكر الحسنات، حتى يصير ذلك طبعاً فى الإنسان، فلا يذكر الحسنات، وإنما يذكر السيئات دائماً وهذا يتجاوز كافرة العشير، التي تذكر السوء عند الغضب، أى أن الزوجة عند غضبها من زوجها تقول: والله ما رأيت منك خيراً أبداً، مع أنها بلا شك رأت منه خيرات، وهذا الذى اعتاد ذكر

السيئات يتجاوز تلك المرأة الغضوب التى تقول: والله ما رأيت منك خيراً أبداً.

وقد دخل ابن من أبناء أبى محجن الثقفى على معاوية؛ فقال له معاوية: أبوك الذى يقول:

إذا مت فادفنى إلى جنب كرمة تروى عظامى بعد موتى عروقتها

ولا تدفنى بالفلاة فإننى أخاف إذا ما مت أن لا أدوقها

فقال له ابن أبى محجن: لو شئت ذكرت أحسن من هذا من شعره؛ فقال: وما ذاك؟

قال: قوله.

لا تسأل الناس عن مالى وكثرته وسائل الناس عن حزمى وعن خلقى

القوم أعلم أن من سرائهمو إذا تطيش يد الرعيدة الفرق

قد أركب الهول مسدولاً عساكره وأكتم السر فيه ضربة العنق

أعطى السنان غداة الروع حصته وحامل الرمح أروبه من العلق

فقال له معاوية: لئن كنا أسأنا القول لنحسنن لك الصدف وأجزل جائزته، وقال: إذا ولدت النساء فلتلدن مثلك (الاستيعاب ٣١٢/٤).

وما كل الناس مثل معاوية - عليه السلام - يعتذر إذا أساء القول، ويحسن جائزة من أساء إليه، أو إلى أحد من أهله، وإنما يزداد كثير من الناس إساءة فوق الإساءة فمن الناس من إذا قال لك فى

امرى سوءاً فذكرته بشيء جميل فيه ذكر لك سوءاً آخر، أو فند ذلك الجميل لك حتى يبدو لك أنه سوء، ولكنه ألبسه ثوب الجمال، كالرشوة التى يلبسها الناس ثوب الهدية أو أقسم لك بالله أن هذا المخلوق لا حسن فيه أبداً وأنتك - والعياذ بالله - لا تعرف الفرق بين الحسن والسوء، فأنت رجل طيب ساذج، يخدعك بهذه الكلمات، حتى تغتر بمدحه إياك، وتقول له: والله لقد صدقت، يبدو أننى لا أعرف شيئاً، والعلم عند الله عندئذ يقول لك: الله عليك، والله يشهد إنه كذاب منافق، لا يحب الله - تعالى - ولا رسوله - ﷺ - ولا المسلمين، إنه ضرب أباه، فيقول:

أعوذ بالله

- وأهان أمه؛ فتقول: لا حول ولا قوة إلا بالله

- وأجر أخته عرضها لأجنبى؛ فتقول: الستر يارب، أطف يارب.

- طبعاً، فما تظن فى هذا المال الكثير الذى عنده؟

- إنه يعمل فى تجارة لعب الأطفال، وهى غالية.

- هذا هو الظاهر، وهل تحقق تجارة اللعب كل هذه الثروة يا سيدى، إن تلك التجارة ما هى إلا ستار؛ فتقول يا ستار!

- ولو أردت أن أزيدك زدتك، فيقال - يا رب احفظنا - إنه اتخذ من هذه التجارة سبيلاً إلى التعرف على النساء الجميلات اللاتى يأتين بأطفالهن إلى دكانه وهو ابن جنية، يعرف اللعوب منهن، والتى تأتى من أجل شيء آخر غير شراء لعبة لطفلها؛ فتقول: وما هذا الشيء؟ فيقول لك: ألا تعلم بأنه قواد؛ فتشبهق شهقة تكاد روحك تخرج فيها وتضرب كفا بكف، وتذكر قائل السوء بأن هذا الرجل قد حج البيت واعتمر، ولا تفوته صلاة الفجر

فى المسجد، فيرد عليك قائلاً: إنما يفعل هذا حتى لا يسئ الظن به أحد، لكن الحقيقة... فإن بادرته بقولك: الله يعلمها قال لك: وأنا كذلك أعلمها، حلم يسير أن يذكر الحسنات لكن دونه أهوال من ثقافة السوء.

أحلام يسيرة دونها أهوال

٣- ثقافة السوء.

ما من شك فى أن الإنسان بطبعه يحب أن يكون صاحب فضل على الآخرين، ويحب أن يشكره الآخرون الذين نالوا من خيرهِ وعطائه وفى الصحيح يقول رسول الله -ﷺ-: "من لا يشكر الناس لا يشكر الله" فجعل شكر الناس من شكر الله - عز وجل، وذلك لأن فى الناس من يشجعه الشكر على مزيد من فعل الخيرات، والإسلام دعوة إلى فعل الخيرات، واجتناب المنكرات.

وكثير من الذين نفع الخير معهم لا يشكرون، وكان من اليسير عليهم أن يشكروا من أحسن إليهم، لكنها ثقافة السوء التى هى بمثابة الأحلام اليسيرة التى دونها أهوال من تلك الثقافة السيئة، يقولون: وماذا قدم لنا فلان؟ فإن قيل لهم: قدم كذا وكذا وكذا... قالوا: وهذا بالنسبة إلى ما عنده شىء تافه.

كانهم شركاء له، وعليه أن يدفع لهم نصف ما رزقه الله - عز وجل - بالتمام والكمال، ويعلم الله أنه حتى لو أعطاهم نصف ما عنده ما رضوا؛ لأن نفوسهم طبعت على الجشع والطمع وحب الزيادة، ولن يشبعهم شىء، ولن يقنعهم شىء. فقد توغلت فيهم تلك الثقافة السيئة من البغض الشديد عند المنع، ومن البغض الأقل عند العطاء، ففى قلوبهم مرض ألا ترى إلى قول الله -

تعالى - فى المنافقين: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾.

والتعبير بـ"إذا" الفجائية هنا له مدلوله الكاشف عن حقيقة تلك النفوس المريضة بداء الطمع والجشع، وعدم الشبع، تلك التى لا تعطى صدورها فرصة للتنفس من صافى الهواء، وإنما تهب بالأذى إذا منعت العطاء، وتسخط عندها، وتنطق الكفر، وتعبر عن استياء شديد، وفحش كامن فيها أشد.

والرضا من أيسر الأحلام ولكن دونه أهوال من ثقافة السوء. وكذلك هنالك من الأغنياء القادرين من يتصدق ولكنه يبطل ثواب صدقته باليمن والأذى على من تصدق عليهم، ولديه من العبارات نحو "لحوم أكتافكم من خيرى.. ولولا عطائى لكم لكنتم من الشحاذين والسائلين الناس على أبواب الجوامع، والمستشفيات، أو لمتم جوعاً" بل إن منهم من يشير إلى ثوب الفقير أمام الناس قائلاً له: أنسيت أن هذا الثوب الذى يستر عورتك من خيراتى عليك، وإحسانى إليك، ولولاى ما ارتدبت مثله؛ فإن مثلك لا يرى ذلك بعينه إلا متفرجاً، يا ابن كذا وكذا ثوب امرأتك التى تتزين فيه لك، وتتبختر فيه بين الناس، مدعية أنها بنت ناس، أليس ثوب زوجتى الشريفة العفيفة بنت الذوات، وكذا ما على ولدك من ثياب، فى المدرسة وغيرها، إننى كاسيك، وكاسى زوجتك، وأولادك، يا ابن كذا، يجرح شعوره بل يقتل شعوره أمام الناس.

والله عز وجل - يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾.

ويقول عز وجل - قول معروف ومغفرة خير من صدقه يتبعها أذى، جعل الله - تعالى - القول المعروف الطيب خيراً من الصدقة التي يتبعها أذى، لما فيها من إساءة إلى ذلك المسكين الضعيف، الذي يقدر الإسلام مشاعره، ويحفظ عليه وجدانه، ومن ثم جعل له حقاً في مال الغنى، قال الله - عز وجل - : ﴿فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ. لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾. في آية المعارج، وفي آية الذاريات: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾، وفي آية البقرة: ﴿وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى﴾. وفي آية الإسراء: ﴿وَأَتَى الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذُرْ تَبْذِيرًا﴾. من أجل ذلك كان على المتصدق والمحسن أن يغلف صدقته وبره وإحسانه بحصن حصين من تقوى الله - عز وجل - بأن يكون عفو اللسان، وقد ورد في الكرام بحق الذين لا يؤذون الناس أن الواحد منهم كان إذا سئل أعطى ببهجة وسعادة كأنه هو الذي يأخذ، لا الذي يعطى، وذلك لأنه يعلم ما عند الله - تعالى - من ثواب عظيم للمتصدقين المحسنين، ألا ترى إلى قوله تعالى في آيات سورة الليل: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى. لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى. الَّذِي كَذَبَ وَتَوَلَّى. وَسَيَجْنَبُهَا الْأَتَقَى. الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى. وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى. إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى. وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾. فمن ذا الذي يرضيه أن يرضيه الله برضاه العظيم، فلا يمن ولا يؤذى.

أحلام يسيرة دونها أهوال

٤ - ثقافة السوء.

كثير من الناس يقدم الإساءة على الإحسان، يبدأ بالتهويل والتخويف، وهو ينوى أن يحسن، وينوى أن يعفو، لكنه يؤخر ذلك، ويقدم التهويل، يقول لمن نوى العفو عنه: سوف أقطع

رقبتك، تعال يا مجرم، يا مسيء، يا كذا، أما تعرف أنني أنوى أن أحبسك، وأن أضعك وراء الشمس، وبعد أن يفزعته، ويرعبه، يقول له: لكنني تذكرت أباك وأنه كان رجلاً طيباً، مسكيناً، ولذلك عفوت عنك.

وما كان أيسر أن يزف إليه روح البشري، ثم يعاتبه عتاباً خفيفاً، لا يستعصى فيه، فذلك منهج الإسلام، لكن دونه أهوال من ثقافة السوء، قال الله - تعالى - : ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾.

فانظر كيف بدأ ربنا تعالى - بالعفو، ثم ثنى بالعقاب الخفيف، وفي آيات سورة الحجر يقول الله - عز وجل - : ﴿نَبِيُّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ. وَأَنْ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾. فبدأ عز وجل بالحديث عن مغفرته ورحمته، وثنى بذكر العذاب.

وكذلك قوله سبحانه في آية التحريم: ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾.

ولهذا السلوك السيء امتداد في حياتنا الاجتماعية، أعرف رجلاً غضبت امرأته، وكالعادة لحقت ببيت أهلها، وقضت أياماً هنالك حتى اتصل بها، وأعرب عن رغبته في زيارتهم من أجل أن تعود معه وقبل أن يحين موعد وصوله إلى بيت أبيها أعدت حقيبتها، وكانت على أهبة استعداد للعودة معه، وبمجرد أن دخل البيت هب فيه الصغير قبل الكبير، وانهاه عليه بعضهم بالسب والقذف وهم بعضهم بضربه، وقالت أمها من وراء جدار: هل وصل الخسيس! حتى خرج بدونها قائلاً: استعدوا لاستقبال ورقة

الطلاق، وقد عنف بعضهم بعضاً، وخطأ بعضهم بعضاً وحاولوا الاعتذار، ولكن بعد فوات الأوان.

أما كان يحسن أن يستقبل استقبالاً حسناً كأنه ضيف، وفي الحديث: ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، وأن يرى حقيبة امرأته أمام عينيه، لتكون لسان حال، يقول له: سوف تعود معك، حتى يكون مهيناً نفسياً للعتاب الخفيف، وللاعتذار عما كان منه، إن كان قد حدث منه شيء، كان ذلك يسيراً جداً، لو أحسن الناس، لكنها الأهوال التي تعترض يسير الأحلام، وتلك الأهوال تكمن في ثقافة السوء، التي تسيطر على عقول كثير من الناس، ومن ثم على قلوبهم، فهم لا يحسنون والإحسان منهم قريب، ولكن ماذا نفعل، وماذا يفعل هؤلاء الذين غلبت عليهم شكوتهم، فهم يترددون بين الإحسان الذي الأصل فيه القرب، ولكنه بعيد بالنسبة وبين الإساءة التي الأصل فيها أنها بعيدة، ولكنها قريبة منهم لأنهم أدمنوها، واعتادوها؛ فأصبحت منهم بمنزلة الدم في العروق، ولن تخرج منهم إلا إذا عرفوا ذلك، وقصدوه بتوبة نصوح لوجه الله - تعالى - القائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا﴾.

وليست التوبة كذلك من الأحلام العسيرة إلا عند الذين غلبت عليهم شكوتهم، وأثروا السوء على الحسن، والغباء على التفكير، وأعرف رجلاً كان عائداً من سفره، واتجه أول ما اتجه إلى والدته التي لم يرها، ولم تره منذ عامين كان يحمل لها أغلى هدية مما جاء به إلى زوجته وأولاده وأخواته وغيرهم، وأول ما دخل عليها لوت وجهها عنه، وقالت: الآن افكرت أن لك أمأ، وأخذت تسرد عليه ما كان منه قبيل سفره، من إساءة كما توهمت، وأخذت

تشكو زوجته القاسية قائلة له: وطبعاً أنت الذي قسيتها على أمك، وأمرتها بقطيعتي، وعدم زيارتي، حتى ولدك؛ إذ لا شك أنهم جميعاً يسمعون كلامك حاول بلطف الابن البار أن يحتضنها لكنها فرت منه فرارها من الأسد، أو من الأبرص؛ فأخرج هديتها، وحاول أن يدينها منها، فقالت: أوعه، ما هذا، تراك أتيت لأمك بأرخص الهدايا، إن آخر من تفكر فيه أمك، أليس كذلك، فلما هم بالاتصراف غاضباً بكى واحتضنته، وأقسمت بالله عز وجل أنها تحبه، وأنه سويداء قلبها وأنه وأنه أما كان ذلك يسيراً أول اللقاء، لكن ماذا نفعل في الأحلام اليسيرة التي دونها أهوال.

أحلام يسيرة دونها أهوال

٥- ثقافة السوء.

رفع الصوت كما يقال قبل أن يغلب صاحبه من ثقافة السوء، وهو كما قال العلماء من الفواحش، والله - عز وجل - حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وقد تحدثت في هذا الكتاب عن الجار الذي أساء إلى جاره الذي زاره راجياً أن يخفض من صوت الكاسيت حتى يستطيع أن يعيش حياة هادئة بلا كدر؛ فالرجل يريد أن ينام، ويريد أن يعالج قضايا أهله، ويريد أن يقرأ، وأن يكتب وأن يمارس نشاطاته ولكن في هدوء، وقد كان ذلك حلماً يسيراً لكن دونه أهوال من سوء الجيرة، وهنا أقول إن رفع الصوت بلا داع من ثقافة السوء، حتى في الصلاة بمكبر الصوت، والإمام وراءه ثلاثة أو أربعة من المأمومين، وبوسعهم أن يسمعه بدون مكبر للصوت، فما الداعي إلى استعمال مكبر الصوت في الصلاة. والله - عز وجل - يقول: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾.

يجوز أن يرفع الآذان من خلال مكبر الصوت، وكذا الإقامة لأنهما لإعلام الناس بدخول الوقت، ولكن ما معنى أن يصلى الإمام من خلال مكبر الصوت، ولا ضرورة تدعوه إلى ذلك، ويمكنه أن يصلى من خلال سماعة داخلية إذا كان وراءه من الصفوف الكثير، ولا يستطيع آخرها سماعه إلا عن طريق تلك السماعة فهى الضرورة، لكنها الرغبة فى استعراض الأصوات، ومحاكاة المغنيين، والبائعين الجائلين، وغيرهم ممن يستعملون مكبرات الصوت وقد كان فى المدينة المنورة كما ذكر السهيلي فى الروض سبعة مساجد منها المسجد النبوى الشريف، كلها تصلى بآذان بلال فيه، وكل يقيم الصلاة فى مسجده، وتلك فكرة غائبة تماماً عن واقعنا فإن كل زاوية يؤذن فيها، وبين الزاوية والزاوية أشبار معدودة عشرات المساجد يسمع من فيها آذان بعض، والكل يصصر على رفع الآذان، ويحاول أن يستشهد بدعوة النبى - ﷺ - إلى أن يؤذن الفرد وحده إن كان فى صحراء، وهذا لا يصح لهم شاهداً؛ لأنه لا يسمع آذان أحد بالقرب منه، ولو سمعه للبى نداء الله، فصلى عنده، أو صلى فى مكانه دون أن يؤذن.

ولعلك قرأت ما ذكره النووى فى شرحه صحيح مسلم من أنه يجوز أن يؤذن أكثر من واحد فوق سطح مسجد واحد بشرط عدم تشويش أحدهما على الآخر، فإن حدث التشويش فلا يجوز، وقد صارت الحياة برمتها دنيا من التشويش فى المساجد، وفى الزوايا، وفى الشوارع، وفى البيوت، أصوات عالية تنبعث من كل مكان، حتى الدعاء تجده صرخات ولا خلاف بين العلماء فى أن رفع الصوت بالدعاء من الاعتداء فيه، وقد قال الله - عز وجل - ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾. ومعنى ذلك أن رفع الصوت بالدعاء يجعله غير مستجاب، وما أيسر أن يخفض الداعى صوته عند الدعاء، يقيناً منه أن الله - تعالى - يعلم السر وأخفى،

راغباً أن يتقبل الله منه، وأن يجيب دعاءه، وقد رأى النبى - ﷺ - بعض الصحابة يرفعون أصواتهم بالدعاء؛ فقال لهم: اربعوا على أنفسكم؛ فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، فأين غابت تلك الشواهد الكريمة، وكيف توارت عنا، وصرنا نعلم إلى ما يخالفها جهاراً نهاراً، فشت فينا ثقافة السوء، فصرنا نسمع نجوم الدعاء الذين ألفوه وحبكوه بالسجع، ورفعوا أصواتهم به، وكأنه لا يسمع إلا إذا كان عالياً، وقد قال العلماء فى سبب نزول قول الله - تعالى - ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾. إن الناس سألوا سيد الناس - ﷺ - هل الله بعيد فنناديه، أم قريب فنناجيه، فنزلت، فهلا تدبرنا ما نزل، وهلا ربطناه بالسؤال الذى كان سبباً فى نزوله؟

فحين يقول ربنا - تعالى - "إِنِّي قَرِيبٌ" وحين نربط ذلك بقولهم "أم قريب فنناجيه" نفهم أن النجوى هى المطلوبة فى الدعاء، وأن خفض الصوت به منهج الإسلام وطريقته، فما الداعى إلى الصراخ بالدعاء إلى هذا الحد الذى نراه؟

وقد ثبت أن الصحابة - رضوان الله عليهم - كانوا يلحون على الله - تعالى - بالدعاء، ولا يسمع بعضهم بعضاً، فمن استفاد من ذلك؟

إن من اليسير أن تهدأ الأصوات فى كل شىء وفى كل مكان، ولكن دون ذلك أهوال من ثقافة السوء التى غلبت علينا.

أحلام يسيرة دونها أهوال

٦- ثقافة السوء (بث روح الرعب).

ما رأيت أحداً من أولى ثقافة السوء ينطق بخير إن سافر أو تحدث عن مسافر، فهو إن سافر يقول: إن جرى لى حاجة ويودع

قائلاً: يا عالم إن كنت سأعود أو لا أعود، وإن تحدثت عن مسافر انقطعت رسائله، أو غابت اتصالاته قال: من يدرى لعل مصيبة أحاطت به، لعل شيئاً جرى له.

حتى في الزواج، يقول ولي الفتاة وهو يخاطب خاطبها الاحتياط واجب، وأنا أمين، وهي أمانة في عنقي ومن أدراني أنك سوف تذيّقها الويل، أو تأخذ غرضك منها، فتأكلها لحمًا وترمى بها عظمًا، من أجل ذلك لا بد أن توقع عليّ تلك الورقة، وما هي إلا حبر على ورق. ولكن لكي نطمئن جميعاً، فإذا وقع له على ما يريد قال: وربنا - تعالى - نسأله ألا يكتب عليكم شراً، واسأله أن تعيشا في تبات ونبات، وأن ترزقا البنين والبنات، وأن يهدأ سركما، وأن وأن، ولكن بعد ماذا؟ بعد أن بث في روح الولد الرعب، وصور له روح الحياة الوليدة على أنها عدم لا وجود، وتعاसे لا سعادة، وشقاق لا وفاق.

وأعرف رجلاً بشر بمولود، وقال له الناس جعله الله لك من الذرية الطيبة، وتعيش حتى تراه طبيباً أو عالماً كبيراً. وبدل أن يقول أمين قال: معقولة، هل سأعيش حتى أراه كما قلت، (هذا كلام فارغ).

والبلاء موكل بالمنطق كما قال النبي - ﷺ - أي أن الذي يقدر السوء يحدث له السوء، فقد روى أن النبي - ﷺ - زار رجلاً مريضاً، فقال له على المعهود منه - ﷺ - عندما كان يزور مريضاً طهور إن شاء الله؛ فتعجب الرجل، وقال: طهور! بل هي حمى تفور. على رجل كبير، تزيّره القبور؛ فقال عليه الصلاة والسلام: فنعم إذاً، فمات من غده.

وقد زار - ﷺ - مريضاً آخر فوجده من الضعف قد صار مثل الفرخ، وعرف - ﷺ - بنور النبوة أنه قد دعا على نفسه، فسأله:

هل دعوت على نفسك بشيء؟ فقال: نعم يا رسول الله قلت: اللهم ما كنت معاقبى به في الآخرة فعجله لى في الدنيا فقال عليه الصلاة والسلام: سبحان الله، لا تطيقه هلا قلت: ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار، ودعا له - ﷺ - فشفاه الله وكان هذا أكثر دعائه - ﷺ - وهو من دعاء القرآن، ودعاء القرآن الكريم أعلي الدعاء كما قال العلماء، قال الله عز وجل: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ. أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا﴾.

لكن كثيراً من الناس لا يدعو بهذا الدعاء، وإنما يدعو على نفسه، وعلى ولده، وعلى سيارته، وعلى الدنيا جميعاً، والشائع في هذا الدعاء: الدعاء بالقطيعة واللعة ومعنى اللعة: البعد عن رحمة الله - عز وجل - يقولون: يلعن كذا وكذا، صار كل شيء ملعوناً خصوصاً المال الذي هو قوام الحياة، يقولون، يقطع الفلوس ويلعن الفلوس ويلعن الوظيفة وسنين الوظيفة، حتى صار كل شيء ملعوناً، وبعيداً عن رحمته تعالى، وكأنه - عز وجل - قد استجاب فصار كل شيء بالفعل بعيداً عن رحمة الله، وعن بركته ألا ترى الناس خصوصاً هؤلاء يشكون انعدام البركة ألا يفكرون في أنهم سبب ذلك بدعائهم، وهل يريدون أن يدعوا بشيء كرهه، ويجيبه الله تعالى على عكسه ومن رحمته - عز وجل - أنه لا يعجل الشر لعباده الذين يعجلون به، قال تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتَعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقَضَى إِلَيْهِمْ أَجْلَهُمْ﴾. لكن قد يستجاب لبعضنا إذا دعا بالسوء، لعل الباقيين والأكثرين يتعظون، وقد قال - ﷺ - "لا يدع أحدكم على نفسه ولا على ولده، ولا على دابته، عسى أن تكون ساعة إجابة؛ فلا يلومن إلا نفسه".

وما أيسر أن يبيت المرء في الدنيا روح الأمل والتفاؤل والفرح بالتطلع إلى رحمة الله، ورحمة الله قريب من المحسنين ولكن هذا اليسير دونه أهوال من ثقافة السوء التي غلبت علينا.

أحلام يسيرة دونها أهوال

٧- ثقافة السوء (سوء الظن):

لا فرق بين سوء الكلام، وسوء الظن، كما أنه لا فرق بين حسن الكلام، وحسن الظن، فالحسن شقيق الحسن والسوء شقيق السوء .

أى ما كان أيسر أن ينطق صاحب اللفظ السئ اللفظ الحسن، ولكن دون ذلك أهوال من ثقافة السوء التى غلبت عليه، وكذلك ما كان أيسر أن يحسن الظن بالناس ولكن دون ذلك أهوال من تلك الثقافة السيئة التى سيطرت عليه عقلاً ومن ثم قلباً، فهو يسئ الظن بالناس ويقول: حتى يثبت العكس، ولو ثبت العكس ما أحسن الظن، والأصل الراسخ فى هذا الدين حسن الظن بالناس حتى يثبت العكس.

وقد ثبت أن رجلاً كان سيئ اللسان فى عهد رسول الله ﷺ - واستأذن يوماً عليه كما روى البخارى فى صحيحه وغيره، فقال عليه الصلاة والسلام: ائذنوا له بنس أخو العشيرة، فلما أذنوا له. ودخل عليه - ﷺ - فأحسن استقباله ومشى له على المعهود من خلقه - ﷺ - فلما مضى سأل الناس رسول الله ﷺ - عن ظاهر المفارقة بين قوله "بنس أخو العشيرة" وبين حسن استقباله إياه؛ فقال عليه الصلاة والسلام. إن شر الناس من هجره الناس اتقاء فحشه، أى أن شر الناس هم أولئك الذين لا يزورهم أحد، ولا يمر عليهم أحد تجنباً لفحشهم وما عسى أن يفسر معنى الفحش الأول غير أن سوء اللقاء إذا زارهم أحد، ومن الفحش سوء النظر فى وجوه الناس، واتهامهم بالنظر الذى هو قول ربما يكون أبلغ من القول باللسان، ألا ترى إلى قول الشاعر:

وترميننى بالطرف أى أنت مذنب

أى أن زوجته ترميه بطرف العين، تقول له بالنظرة: أنت مذنب صحيح أنها لم تقل ذلك بلسانها، وإنما قالتها بنظرة عينها، والقول بالنظر أبلغ أحياناً من القول باللسان، وأشد على الناس منه: إذ قد يكون للقول بلسان المقال تأويل آخر يصرفه من الاتهام إلى غيره، مما هو أخف، لكن حدة النظر، والارتياح فيه شئ فظيع مؤلم، لا يتحمله المذنب حقاً فضلاً عن البرئ الذى ينسب إليه الذنب، وهو منه براء، إنه يشعر بالاحتقار والازدراء والسخرية والاستهزاء، وليس بعد سوء الظن الذى لا دليل عليه من فحش، إنه دعوة إلى الهجر، والنبد، وعدم التعامل .

ومن الناس من يبتلى بتلك الثقافة السيئة فإذا به مريض مرضاً نفسياً عجباً، يكاد يشك فى نفسه، وفى ولده وفى والده، يشك فى كل الناس، ومن كانت هذه حالته وكان هذا مرضه فكيف يعامل الناس، وكيف يختلط بهم والناس لابد أن يتصل بعضهم ببعض، ويعامل بعضهم بعضاً، وبسوء الظن لا يتسنى تعامل ولا اختلاط وكما قلت إن سوء الظن بالناس مثل قول السوء للناس، كل ذلك من ثقافة السوء التى سادت، وغلبت، وسيطرت على الفكرة، والدليل على ذلك التعبير بألفاظ العموم، نحو قول هؤلاء:

كل الناس غشاشون

كل الناس كذابون

كل الناس بوجهين

كل الناس على لؤم وخداع

كل الناس يجرون وراء مصالحهم الذاتية

والتعبير بـ"لا" النافية للجنس، وهى كما ترى من اسمها دال على نفى الجنس، مثل:

لا أحد يتقى الله، ولا عذراء هذه الأيام، ولا أمل فى العثور على رجل صادق، ولا عالم اليوم موجود، ولا خير فى أحد، وهكذا، أليس ذلك دليلاً على نفى الخير برمته، والطيب برمته، والعذرية برمتها، هل يصدق أحد أن جميع الناس هكذا، وأنه لابنت طاهرة، وأنه لا أحد يصدق، ولا أحد يتقى الله وهكذا، هذا من العموميات الظالمة .

وفى الحديث الشريف: "من قال: هلك الناس فهو أهلكهم" يروى بضم الكاف، ويروى بفتحها، ومعناه على الضم أنه أهلك الناس، أى أشدهم هلاكاً. ومعناه بفتحها أنه هو سبب هلاكهم، ولعل ذلك يفسره حديث الرجل الذى كان فى شدة فى قومه، فجاء المدينة، فدخل بستاناً، فأكل منه فراه صاحب البستان، فضربه، وأخذ ثوبه فلما رفع الأمر إلى النبى - ﷺ - أمره برد ثوبه، وقال له: لم تطعمه إذ كان جائعاً ولم تعلمه إذ كان جاهلاً، لذلك نرى أننا جميعاً إلا من رحم الله مثل هذا الرجل فنحن سبب فى هلاك كثير من الناس،

أحلام يسيرة دونها أهوال

٨- ثقافة السوء (الاستشارة الخائبة):

فى الكتاب العزيز يقول الله - تعالى - ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ ويقول عز من قائل: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾.

وفى السنة المطهرة نجد أبا الهيثم النيهانى - رحمه الله - النقيب، الأتصارى، كثير الشياخ والنخل يأتى رسول الله - ﷺ - إثر وعد

وعده إياه حين أضافه فى نبيه وصاحبيه الكبيرين أبا بكر وعمر - رضى الله عنهما - بأن إذا جاءه نبى أن يأتية ليعطيه خادماً، وكان عنده - ﷺ - غلامان؛ فقال عليه الصلاة والسلام: لأبى الهيثم: خذ أحدهما؛ فقال له: اختر لى يا رسول الله؛ فقال عليه الصلاة والسلام - المستشار مؤتمن، خذ هذا، فإنى رأيته يصلى، وأحسن إليه، وقد كان، ووصل أبو الهيثم إلى بيته، وقص على زوجته الذى كان؛ فقالت له: ولن يبلغ إحسانك به إلا إذا أعتقته؛ فأعتقه.

وأنا أتصور فى ثقافة السوء أن رجلاً تستشيريه وتلمح له برغبة لديك فى اختيار من يصلى. وإيثاره على غيره فإذا به وقد شعر بتلك الرغبة فيك يصرفك عنه، قائلاً لا يشعرنك أنه يصلى، فكم من مصلى لا يصلى إلا بجوارحه لكنه لا دين له، ولا ذمة، ولا أمانة، أعوذ بالله، انظر إلى فلان، يصلى عند قول المؤذن: الله أكبر، وقد أكل مال فلان، وظلم فلاناً، وضرب فلاناً، ثم تعالى لأقول لك: أليس الدين المعاملة؟ فترد قائلاً: بلى، فيقول لك: معاملته أسوأ معاملة. حتى تقول: أعوذ بالله .

نعم، هناك مستشار غير مؤتمن، وما ذلك إلا بسبب ثقافة السوء، بل إن من الناس من إذا استشرته قال لك افعل ما يعجبك، وما تراه يروقك لا تتردد فيه، ومنهم من يقول لك عموميات، لاتمت إلا الأمارة فى الشورى بسبب كأن يقول لك: ما تخاف منه لاتجد أحلى منه، وخذوهم فقراء يغنيهم الله من فضله، ولو جاءوا للمجنون بألف عقل على عقله لقال عقلى أفضل، ونحو ذلك، فما بك فى حلقك ريقاً، وما أراح فى صدرك ضميراً، ومارسك على بر، ثقافة السوء تمنعه من أن يعمل عقله، ويعطيك خبرته، وينفك

بشيء هو قادر عليه وإن عاتبه أحد من خلصائه قال له: كبر دماغك، وكم أدت هذه العبارة "كبر دماغك" إلى تخلف كبير عن ركب الدين الذي يدعو إلى ثقافة الحسن والتنوير؛ ومسايرة ركب الحضارة، والدعوة إلى أطيب حياة، ولن تطيب الحياة دون أعمال رأت وفكر ودلالة علي الذي هو خير، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ وقول النبي - ﷺ - "إنما الدين النصيحة" والله - عز وجل - يقول: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾.

ولن يعزم امرؤ على أمره ويتوكل على الله فينجزه إلا إذا كان على بصيرة منه، ولن تتحقق هذه البصيرة برأى فرد قد يكون بينه وبين الصواب مسافات بعيدة .

وقد شاور النبي - ﷺ - أصحابه، وأخذ برأيهم وهو الغنى عن الناس جميعاً بالوحي، ونور النبوة، وإنما ذلك للتشريع، حتى يسر لنا معشر المسلمين "الشورى" فمن استشار أحداً فقد عرج على عقله، ونهل من فكره، واغترف من فيوضات تجاربه، وما ندم من استشار، ومن الناس من إذا استشرته اكتفى بقوله لك: صل صلاة استخارة وأنا أتصور أن ذلك لم يفدك، وإنما فر منك متمسحاً بالدين وقد جاءت فاطمة بنت قيس - رضى الله عنها - تقول للنبي - ﷺ - إن رجلين خطباها، هما معاوية بن أبي سفيان ورجل اسمه أبو جهم، فما قال لها - ﷺ - صلى يا فاطمة صلاة استخارة، وإنما قال لها: أما معاوية فصعلوك لا مال عنده، وأما أبو جهم فرجل لا يضع العصا عن عاتقه، ثم قال لها - ﷺ - تزوجى أسامة. قالت: فكرهته فلما ذكره النبي - ﷺ - تزوجته،

فإذا به الخير فهل رأيت أحداً استشرته أن يختار لك شيئاً من شيئين فاختر لك ثالثاً لم يخطر على بالك، وصرفك عن الشيئين اللذين جئته من أجل أن يختار لك أحدهما! إنه لا يفعل ذلك إلا إذا كان متأسياً بالنبي - ﷺ - وسوف يسفر بلا شك هذا التأسي عن فكر جديد، وخير بلا شك جديد؛ لأن ثمرة الاجتهاد طيبة بلا ريب، والله عز وجل يقول في خاتمة سورة الحج: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ ومن حق الجهاد أن يعمل العاقل عقله، وأن يفيد إخوانه لا سيما الذين استشاروه؛ فالمستشار مؤتمن .

أحلام يسيرة دونها أهوال

٩- ثقافة السوء (تمنى القليل):

من ثقافة السوء أن يتظاهر المرء بالقناعة، وأن يعرب عن رغبته في القليل دون الكثير، يقول: إذا حصل ولدى على الإعدادية فهذا منتهى الأمل ويقول لك: إذا أكرمنا الله بشقة من حجرة وصالة فياسلام نعمة ورضا .

حتى إن بعضهم إذا ذكرت الجنة ونعيمها قال: أى حاجة، أى حاجة، المهم أن يبعدنا الله عن النار، وما ذلك بفقّه في الدين؛ لقول الله - عز وجل - ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾. وقوله سبحانه: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾.

وقوله - ﷺ -: "إذا سألتكم الله الجنة فاسألوه الفردوس".

وفلسفة أى حاجة وأى كلام، وأى إنسان، وأى واحد من ثقافة السوء؛ لأن من هدى هذا الدين التطلع إلى القمم، وسؤال الله

- عز وجل - من فضله، وفضل الله عظيم، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

وقد دعا سليمان - عليه السلام - الله؛ فقال: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ والنبي - صلى الله عليه وسلم - يتحدث عن بعض نعم الله تعالى عليه فيقول: "تصرت بالرب، وأوتيت جوامع الكلم، وجعلت لى الأرض مسجداً وظهوراً".

أى أن فضل الله عليه عظيم، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾، فلماذا التدنى فى المطالب، وسؤال القليل، وما أسميه (البسبوسة): فى الدعاء، أى يقول الداعى: يا رب، الصحة وبس، أو يقول: الستر وبس، أو يقول: أرى ابنتى فلاتة فى بيت زوجها، وبس، لا أطلب شيئاً من الدنيا غير هذا، أو من المعقول أن يكون هذا فكر المسلم الذى يتلو قول الله - عز وجل - : ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ وقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾، وقوله تبارك اسمه: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا. يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا. وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا. مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا. وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾.

أيقول الله - عز وجل - واسألوا الله من فضله ونحن نستخف هذا الفضل ونستقله، ونقول: كذا وبس. أو كذا وفقط، هل نظن أن فضل الله - عز وجل - ضيق، أو نريد أن نوفر لغيرنا، فما عند الله قليل، لا يكفى كل العباد، ونحن نعتقد أن الله - عز وجل - لو أعطى كل إنسان مسأله ما نقص ذلك من ملكه شيئاً، فأى شيء يحول دون سؤاله - عز وجل - كل شيء.

إن هناك زهداً صحيحاً، هو الزهد عما فى أيدى الناس، فذلك سبيل إلى حبهم، فالناس يحبون ألا يطمع فيهم أحد، لكن رب

الناس يحب أن يطمع كل أحد فيما عنده. فهو رب العالمين، وهو ذو الملك العظيم ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾. وهو يحب من دعاه، والله در القائل:

الله يغضب إن تركت سؤاله وبنى آدم حين يسأل يغضب

ولعل ما نحن فيه من تخلف فى الحياة بسبب تلك الثقافة السيئة حيث إن من مقتضياتها عدم العمل المبني على عدم التطلع إلى مزيد من رفاهية الحياة، فإن معظم الناس يعيش فى المستوى الأدنى وبوسعه أن يرتقى، وأن يتحول بحياته إلى أطيب حياة من خلال أمرين مهمين .

الأول: العمل الجاد المتواصل مع التوكل على الله - عز وجل.

والثانى: توفير ما يستطيع توفيره من أجل النهوض بمستوى حياته، وحياة أسرته، ومن ثم حياة أمتة التى هو لبنة من لبنات صرحها.

لكن هؤلاء يزعمون أنه الرضا، وأنها القناعة، يقولون من رضى بقليله عاش، وهل يظن أولئك أن من رضى بكثيره مات، نعم، من رضى بقليله عاش إذا لم يجد غير هذا القليل، ولم يكن فى وسعه تحصيل الكثير، أما الذى فى وسعه أن يحصل على الكثير ويتركه، راضياً بالقليل فهذا أحق لأن الإسلام دعوة إلى أطيب حياة، وما أيسر ذلك؛ لأن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ولكن دون ذلك أهوال من ثقافة السوء .

أحلام يسيرة دونها أهوال

١٠- ثقافة السوء (قل يارب):

يأكل الفاكهة دون أن يغسلها، فإن قال له قائل: ألا تغسلها قال: قل يارب .

وينصب نفسه طبيباً لنفسه، فلا يستشير طبيباً، وإنما يداوى نفسه بأى عقاقير يجدها أمامه، فإن قال له قائل: تضر بنفسك إذا أجابه: قل يارب .

ومعروف أن نومه ثقيل، وهو على موعد فى البكور، فإن قال له صاحبه: أمر عليك فى الصباح! قال: لا تفعل سوف آتيك قبل موعدنا، قل يارب، فيقول: يارب .

ومعروف أنه لن يستطيع رفع شىء ثقيل، فإن قيل له: لا تفعل قال: قل يارب .

فلماذا لم يقل رسول الله - ﷺ - يارب وهو يرد صغار السن من غلمان المسلمين الذين أتوه لكى يجاهدوا معه .

ولماذا لم يقل لسعد بن أبى وقاص - رضي الله عنه - حين مرض: قل يارب، وقال له: اذهب إلى الحارث بن كلدة .

إن ثقافة السوء تمتد إلى عدم الفقه بالدين، يقولون - وقولهم صواب - إن الله على كل شىء قدير .

ونحن نؤمن بأن الله - على كل شىء قدير، ونؤمن فى الوقت نفسه بأنه - عز وجل - قال: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِالْغِيَةِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ فالله تعالى على كل شىء قدير، وقد سن للوجود سننه ومن سننه أن المرء إذا بلغ

بلداً بعيداً دون أن يركب حماراً أو بغلاً أو خيلاً أو طيارة أو سيارة لم يبلغه إلا إذا شقت نفسه شقين، ما قال الله - عز وجل - قولوا يارب وأنا أجعل الرياح تحملكم، وما قال تعالى - قولوا يارب وأنا أرزقكم من فوق سبع سماوات، وإنما قال: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ .

وقال لمريم - عليها السلام - وهي فى المخاض ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا. وَهَٰذَا إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا. فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾ .

إن ثقافة المسن التى هى ثقافة الدين تقتضى أن يفقه المرء الربط بين قوله "يارب" وبين أخذه بالسبب، أى أنه لابد أن يقول يارب وهو آخذ بالسبب؛ لأن السبب وحده لا يكفى لبلوغ الغاية ما لم يكن توفيق من الله - عز وجل - والله در القائل:

إذا لم يكن عون من الله للغنى فأول ما يجنى عليه اجتهاده

وقد قاتل المسلمون فى سبيل الله، خرجوا لمواجهة الطغاة الظالمين، ورموا أعداء الله والدين والمسلمين فانظر ماذا قال الله رب العالمين، قال تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ .

وقس على هذه الآية الكريمة من سورة الأنفال كل موضع كان السبب فيه ناجحاً، لا تظن أنه السبب الذى حقق النجاح، وإنما هو خالق السبب الذى إن شاء أنفذه، وإن شاء عطله ألم يجر سراقه بفرسه وراء النبی - ﷺ - وصاحبه ليأتى بها إلى قریش وينال الجائزة التى أعدوها من أجل ذلك وهى مائة ناقة، فعطل الله سببه، وساخت الفرس النجبية فى الأرض، لقد تعطل السبب، كما تعطل من قبل حين أغشى الله الكفرة الواقفين ببابه - ﷺ -

ليلة الهجرة ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾.

لكن علمنا بأن السبب وحده لا يكفي لنجاح شيء لا يعنى إهماله، أو تركه، أو الاستهانة به، لأننا مأمورون بالأخذ به، مع التوكل على الله - عز وجل - والاعتقاد فى مدده، وحوله، وقوته، وأنه هو الذى يدفع بنا وبالأسباب التى خلقها من أجلنا نحو غاية مشروعة، فيها رضاه، وفيها صلاح أحوالنا، فمن توكل على الله - عز وجل - قال يارب وهو آخذ بالسبب، ومن زعم أن يارب وحدها تحقق النجاح فذلك صحيح إذا انعدم السبب، عندئذ يجعل الله تعالى للتقى مخرجاً، ويرزقه من حيث لا يحتسب، وهو بالغ أمره - عز وجل - أما إذا وجد السبب فلا بد من الأخذ به .

الفصل الثانى

أحلامنا العسيرة يسيرة عند الله

لكن دونها أهوال

العسير عندنا يسير عند الله ولكن

أحاول فى هذا الفصل الأخير من هذا الكتاب أن أرصد بعض الأحلام التى هى بالنسبة إلينا عسيرة، وهى عند الله يسيرة، ولكن دونها أهوال، وهذه الأهوال إما من سوء فقهننا هذا الدين خصوصاً الكتاب الكريم الذى أنزله الله مباركاً لندبر آياته، وإما من عدم ارتكاز دعائنا على دعامة تجعله دعاء مستجاباً، أى أن هذه الأحلام اليسيرة بالنسبة إلى المولى - عز وجل - لا تتحقق لنا بسبب يرجع إلينا، أو بسبب عدم إجابة دعائنا، هذا ما هديت إليه، وأسأل الله تمامه بتوفيقه؛ فأقول: إن الكتاب الكريم، والسنة المطهرة المصدرين الأساسيين لهذا الدين عقيدة وعملاً وسلوكاً، وفيهما النص القطعى الدلالة على تحقق اليسير من الأحلام الذى يبدو عسيراً عندنا من غير شك، ولأضرب على ذلك تلك النماذج :

١- استحالة العدو حبيباً:

من هذه الأحلام أن يصبح عدوك اللدود حبيباً مقرباً، وسبيل ذلك أن تدرأ سيئته بحسنة، ألا ترى إلى قول الله - عز وجل - : ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

وكون العدو اللدود يصبح ولياً حميماً من الأحلام اليسيرة عند الناس بعضهم يقول: هذا من رابع المستحيلات، وبعضهم يقول للطامع فيه: عشم إبليس فى الجنة، وفريق ثالث يقول: عندما ترى حكمة أذنك، وقد يستعيد فريق رابع مثقف قول القدامى عندما يبيض القار، ويشيب الغراب، أى أن الجميع يتفقون على أن تحول العدو إلى الحبيب من المستحيلات .

ولكن الله - عز وجل - ربنا - يقول بعكس ذلك فقل: صدق الله، ومن أصدق من الله حديثاً؟ ومن صدق الله صدقه الله، وسبيل ذلك أن تقابل السيئة بالحسنة، ولا تلتفت لقول بعض الجاهل: سيقال عنك ضعيف، سوف يركبك أكثر، سوف يزعم أنه قد غلبك، وقهرك، وأنت تخاف منه زيادة السوء، ولو لم تكن على يقين من أنه يستطيع أن يفرمك لما لنت له، إلى غير ذلك من العلل الداعية إلى مقابلة السيئة بسيئة أعنف، ومقابلة الفحش بفحش أشد، وأن الناس منهم من لا يردعه إلا هذا السلوك، والعين الحمراء، والزرقاء، وهناك نقطة مهمة أشار إليها النظم الجليل إلى سلاح السالك هذا المسلك، وسلاحه الصبر، أي كن صبوراً وأنت تدفع السيئة بالحسنة، لا تكن عجولاً، تنتظر مودته من أول حسنة، ولا تكن أرعن، تظهر اللين وعينك معبرتان عن شك وريب؛ لأنك عندئذ تبدو مثل الذي يتصنع ويتكلف، وسوف يقرأ عدوك هذا التكلف، فيستفزك من جديد، حتى يذهب لينك المصطنع، وتحل محله قسوتك البادية في نظرة عينيك، وشحوب وجهك، وارتعاش أعضائك فهو لا يراك على تمام هينتك من الرضا، والتسامح، وإنما يراك تقدم رجلاً، وتؤخر أخرى، أي أنك من المترددين، المرتابين وهو في حال إساءة ما زال مشتتلاً بنيرانها، ولهيب الغضب يحرقه، وماؤك الذي جئت به لا يطفئ كل هذه النيران، إنما يطفئها ماء اليقين بكلمات الله - عز وجل - فأنت تذهب إليه وإن جافاك، وتعفو عنه حين ظلمك، وتصبر على ذلك ولا شك أن نفس عدوك مهينة لاستقبال ذلك بدليل قول ربك ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ ولولا أن نفسه مهينة لقبول ذلك منك، وأنه مهين للتحول من العداوة إلى الولاية الحميمة لما قال ربنا - تعالى - ذلك وبناء عليه فإن الحلم اليسير دونه أهوال من جبلة نفس ترغب في الانتقام، ومن رفاق سوء، قد يكونون من

أهلك، وأقرب الناس إليك، فقد تقول لك زوجتك: والله لن أنام إلى جوارك على سرير واحد وإن لم ترني فيه الأعاجيب حتى أشعر أنني متزوجة من رجل بحق، فإن الناس يقولون أتزعمين أنك امرأة رجل، لتغلي دماغك في عروقتك، فتسحب سكيناً أو مسدساً وتقتل جاراً أساء إليها بكلمة أو شتمها، أو غيرها بأحد من أهلها، عندئذ تتوارث العداوة بعد قتله، وبعد إعدامك أو سجنك المؤبد!

العمل يحقق عسير الأحلام

٢- والله عز وجل يقول في آية الملك: ﴿لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ والنبى - ﷺ - يقول: "يعمل ويتصدق" في جواب من سألته عمّن لا يجد صدقة، ويقول - ﷺ - "ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبى الله داود - ﷺ - كان يأكل من عمل يده".

وقد بلغ كثير من الصحابة مبلغاً عظيماً في الثراء؛ لأنهم عملوا، وفقهوا أعمالهم، ومهروا فيها، أمثال أبى بكر - ﷺ - وعمر، وعثمان، الذى جاء متأخراً عن الجمعة بسبب السوق، وعمر أمير المؤمنين يخطب، وذكر أنه لم يتمكن من غسل الجمعة، فاكتمى بالوضوء، واستدل الإمام الشافعى - ﷺ - بذلك فى كتابه الرسالة على أن قول النبى - ﷺ -: "غسل الجمعة واجب على كل محتلم" أن واجب معناه السنة، وليس الفرض، فلو كان واجباً لأرجع عمر عثمان من المسجد حتى يغتسل، لكنه سمح له بحضور الباقي من الخطبة والصلاة؛ فدل ذلك على أن الوجوب فى هذا الحديث بمعنى السنة .

فانظر لم يؤخر عثمان - ﷺ - نوم ولا كسل ولا مشاهدة مباراة، ولا شات، ولكن أخره العمل فى السوق - وكان ذا تجارة، ومنهم عبد الرحمن بن عوف - ﷺ - الذى عرض عليه أخوه

الأصاري سعد بن الربيع أن يشاطره ماله وأهله؛ فقال له: بارك الله لك في مالك وفي أهلِكَ، ولكن دلني على السوق؛ فدلّه عليها (السوق مؤنثة) فباع واشترى، وكان ربحه عقال بغير، ثم صار ببركة الله - عز وجل - صاحب ملايين، وتجارة واسعة، أفادنا بسر ربحه وملايينه بأنه لم يحتكر سلعة، وإنما كان يرضى بقليل الربح ويبيع كثيراً، فاضرب القليل في الكثير ينتج لك الكثير جداً والله - عز وجل - يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ فربط حسن العمل بالمؤمنين وربط المؤمنين بحسن العمل، ومع الأسف تخلف المسلمون عن هذا الربط، وتركوه لغيرهم؛ ففازوا حيث تخلف المسلمون، وصارت الماركات الدالة على حسن الصنع وإتقان العمل كلها لغير المسلمين من الساعات، والسيارات. وغيرهما من الأجهزة التي باتت ضرورية في الحياة، فهل سمعت عن ماركة عربية أو إسلامية في شيء من الصناعات، والمزروعات، حتى بعض الثمار والفواكه لا حظ لنا في ذيوعتها وانتشارها في بلاد الدنيا، وإنما يقال "تفاح أمريكي ولبناني أحياناً" ويقال صناعة يابانية وقد غزت الصين العالم بمنتجاتها، وجدتها، وعمل كل فرد فرد فيها وفي يوم من الأيام، كنت أسير في شارع فؤاد بوسط القاهرة، وأشرت إلى السائق أن يتوقف إلى جنب صيدلية تعمل على مدى الأربع والعشرين ساعة ليأتينى بقطرة معينة لعيني التي ضيعها أستاذ العيون الكبير بإهماله وكان ذلك حوالى الساعة السادسة صباحاً قبل أن تشرق الشمس نزل السائق، وتركتنى في السيارة التي قدراً كان وقوفها إلى جنب الرصيف الذى وقفت عليه سيدة صينية تباع أجهزة المحمول، وثلة من الناس حولها، يقلبون فى الأجهزة التى عرضتها على مائدة صغيرة، وتحمل وراء ظهرها حقيبة كبيرة،

وهى واقفة على قدم وساق، لا تتحدث العربية، وإنما تكتب سعر الجهاز الذى اختاره الزبون على آلة حاسبة بيدها، قلت: سبحان الله، لا أزعم أن امرأة مصرية قامت من نومها فى تلك الساعة إلا مضطرة لإعداد نفسها إن كانت موظفة، أو إعداد طفلها التلميذ قبل أن يصرخ سائق الباص المدرسى بصوته ومنبهه باصه المزعج حتى ينزل حمادة، وتوتو، وريتا، وتالية تودعه والنوم فى عينيها، والكسل سار فى عمق نفسها، وفى جميع أعضاء بدنّها، تلبى داعى النوم على سريرها بعد أن تقذف بالباب خلف وليدها التى قالت له: باى بتثائب يبت فيه روح اليأس من نشاط خلفه يدفعه إلى نشاط ينتظره .

وتذكرت أُمى - رحمها الله - ومثيلاتها من الفلاحات اللاتى كن أنشط من هذه المرأة الصينية، وأبكر منها حيث كن يفقن من نومهن قبل الفجر فى همة ونشاط، لتنظيف دار، وحلب جاموسة، وإفطار أسرة، ورعاية أحوال، من أجل ذلك خرجن إلى الدنيا علماء كباراً، زرعن فيهم روح الجد والهمة، فحققن بعض الأحلام فى ظروف صعبة من نظم فاسدة ، ولوائح ظالمة لولاها لحققوا كل الأحلام .

إقامة الدين تحقق عسير الأحلام

٣- وفى الآية (٦٦) من سورة المائدة يقول الله - تعالى- ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكْلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءٌ مَا يَعْمَلُونَ﴾.

أى لو أن أهل الكتاب أقاموا التوراة والإنجيل والقرآن لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم، وكذا لو أن المسلمين أقاموا الدين لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم، والأكل من فوقنا ومن تحت

أرجلنا من الأحلام العسيرة خصوصاً في زمان الجوع، والفتن، والفساد الذي يصلحه إقامة الدين، بإقامة الدين تحقق العسير من الأحلام أي أنها أحلام يسيرة بالنسبة إلى الحق وحاشاه أن يسند إليه حلم، فإنه عز وجل - لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء أي أن العسير الذي نتصوره من المستحيلات هو عند الله هين ولكنه دونه أهوال من عدم إقامتنا الدين، فلو أقمنا الدين لما كانت عندنا من مشكلة .

ومعنى إقامة الدين التي ألفت فيها أعمالاً كاملة أن يكون للدين وجود في حياتنا، أن يتحول من نظرية إلى تطبيق فما أكثر الذين يحفظون القرآن الكريم، وما أكثر المفسرين الذين تخصصوا في علم التفسير وعلوم القرآن، وما أكثر علماء الحديث الذين يصح أن نطلق عليهم حفاظاً، درسوا الحديث متناً ورواية وسنداً وعرفوا الرجال، أي عرفوا الثقات والمجروحين، وهم بحور علم في تلك التخصصات الدقيقة، ولكن هل رأينا الدين واقعاً في حياتهم، لا شك أن هناك صالحين .

وهناك دون ذلك، وهم الأكثرية، انظر مثلاً إلى المساجد كم تجد من الناس يوم الجمعة، بل انظر إلى الحجيج الذين يموت بعضهم من شدة الزحام لا سيما عند الجمرات، حيث يتدافع الملايين في لحظة واحدة، وبالمناسبة لو أقمنا الدين في تلك الشعيرة لما مات أحد، حيث إن الرمي جائز على مدى الساعة، أي بالليل والنهار لضرورة الزحام، وهو ليس من أركان الحج، لكن التشدد هو الذي يوهم الناس أن الذي لا يرمى عند الزوال لا حج له، وأنه ضيع السنة، وليس في ذلك من إقامة الدين شيء .

نظر الناس إلى صحابي جليل هو أبو بكره الأسلمي حين قطع الصلاة وجرى وراء فرسه الذي قطع الحبل وقالوا: هذا صاحب

رسول الله - ﷺ - يقطع صلاته من أجل فرس؛ فتألم حين سمعهم، وقال صحبت رسول الله - ﷺ - وما عنفني، وكان رفيقاً، وما عنفني أحد من أصحابه، إنني لو لم أقطع صلاتي لفر فرسي، وما أدركت أصلي إلا لبيل، وفي الوقت اتساع أين هذا الفكر الآن من أولئك المتشددين الذين يزعمون أن التشدد هو روح الدين، وأين هذا الفكر من أولئك الذين تدينوا في أنفسهم بهمهمات وأدعية وصور، وتركوا العلم والعمل، بل السلوك الذي يرتقى بهم إلى رضوان الله - عز وجل - وإلى تحقيق عسير الحلم الذي هو يسير عند الله - عز وجل - فإنه - جل وعلا - لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، إننا في حاجة إلى إقامة الدين كما أننا في حاجة إلى إقامة البيت الذي نحلم به، ونحن نحفظ كيفية رسمه نقول: الباب كذا، والطرق كذا وكذا، والحجرات كذا وكذا، والتهوية كذا، والبحرى أفضل، والسقف كذا، والحديقة من هنا ونظل نحلم دون أن يتحقق الحلم فهل ترانا أقمناه حتى يصبح واقعاً نسكنه، أو نبيعه، أو نهبه لمساكين مغتربين!

إننا بمجرد الحديث أشبه ما نكون بمراهق، يقول سأتزوج من حسناء الشكل، أصيلة النسب، مثقفة، وسوف أسعدها، وتسعدني، وسوف أنجب ثلاثة أطفال، كلهم سيصبحون أطباء، ويشتركون بمساعدتي لهم في بناء مستشفى عظيم، ويفعلون كذا وكذا، وسوف أبنى بيتاً على النيل، وأشتري مزرعة في الصحراء الشاسعة، ويظل يرسم أحلاماً وهو الذي لا يعمل أصلاً، ولا يحاول أن يحصل على فرصة عمل وهكذا، نحن في إقامة الدين كالمراهقين، يتكلمون ويحلمون ولا يعملون، وحين سأل ربيعة بن كعب - رضي الله عنه - رسول الله - ﷺ - رفقة في الجنة قال له - ﷺ - أعني على ذلك بكثرة السجود، أي بطاعتك لله - عز وجل - فليس الدين بالتلمي؛ وقد قال ربنا - تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلُ الْكِتَابِ مِنْ يَعْمَلُ سُوءًا يُجْزِيهِ﴾ فمن أراد أن يحقق حلمه فليجعل الدين واقعاً في حياته وليس مجرد كلمات!

تقوى الله تحقق عسير الأحلام

٤ - والله عز وجل - يقول: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا. وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾.

والمخرج قد يكون عزيز المنال في كثير من الأحوال، لكنه على الله - عز وجل - هين، والرزق من حيث لا يحتسب المرء من وادى المحال كذلك، لكن الله ضامنه لمن يتقيه، والتقوى معناها أن تتخذ لنفسك وقاية من غضب الله، وعذابه، بأن تطيعه، فهو يجدك حيث أمرك، ولا يجدك حيث نهاك، وليس معنى ذلك أنك معصوم من الخطأ، وإنما هذا ديدنك، وتلك عادتك، وقد تقع في المعاصي، فإذا بك تتذكر وعيد الله - تعالى - عليها، فلتستغفر وتتوب ولا تتماذى في المعاصي والذنوب، قال الله - عز وجل -: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

وقد تقبل على المعصية وأنت تقى، فتتذكر، فتعزف عنها، قال الله - عز وجل -: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾.

ولكى تكون تقياً تحقق الأحلام العسيرة بتقواك فإننى أدعوك إلى تدبر تلك الآيات الواردة فى سياق التقوى، لكى تقول أنا كذلك فأنا والحمد لله تقى، أو تعرف الطريق إلى التقوى فتسلكه، فترضى بذلك ربك، وتتحقق أحلامك، وأول هذه الآيات قول الله - عز وجل - ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾.

فإن كنت لا ترى الإسلام شكلاً وحركات، وإنما تراه يقيناً استقر فى قلبك، وصدق ذلك اليقين عملك الذى من أهمه إيتاء المال برغم حبك إياه ذوى قرابتك، واليتامى الفقراء، والمساكين وابن السبيل والسائلين، وفى الرقاب تحررها من قيد العبودية للناس إلى عظيم العزة بالعبودية لرب الناس، أو تعتقها من ذل الفقر والحاجة والضعف، ألا ترى إلى حديث الشيخين البخارى ومسلم - حيث قالت أسماء بنت أبى بكر - رضى الله عنهما - حين أرسل إليها أبوها الصديق من يسوس لها فرس الزبير بن العوام زوجها، وكانت تسوسه هى، وتحمل طعامه على رأسها: فكأنما أعتقتى، وكم من رقاب فى حاجة إلى هذا العتق الذى غاب عنا، من يتيم لولا كافله لكان أذل من عبد، ومن أم لولا ولدها الذى يشقى من أجل أن يعينها على ذل السؤال والحاجة لكانت معرضة لويلات وغير ذلك، فإن كنت تصون رقاباً من الذل والحاجة فأنت من المتقين، وكذلك أن تكون من المصلين المحافظين على صلواتهم، الدائمين عليها، الخاشعين فيها، وأن تكون من المزكين، الذين يحسبون زكاة أموالهم، وينفقونها فى مصارفها المعروفة، ويجتهدون فى البحث عن مستحقها الذين قال الله فيهم ﴿يَحْسِبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾، وكذلك أن تكون وفيأ إذا عاهدت ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ وقال جل وعلا -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ وقال سبحانه: ﴿إِنْ الْعَهْدُ كَانَ مُسْتَوَلاً﴾، وأن تكون مما بدا صابراً فى البأساء والضراء، فلا تعرف الضجر، ولا تكون كالذين يقولون: إننا صابرون وهم يجزعون، ويخورون، ويضعفون وقد قال الله - عز وجل -: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾.

فالصابرون بحق هم الذين تراههم وهم مصابون، فتقول ليس بهم مصيبة، ومن تلك الآيات قول الله - عز وجل -: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾. الذين

يَنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ. وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ فَإِنْ كُنْتَ مِنْ يَنْفِقِ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، وَمِمَّنْ يَكْتُبُ غِيظَهُ، وَيَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَهُ، وَيَحْسَنُ فِي كُلِّ أَمْرِهِ، وَيَرْجِعُ بِسُرْعَةٍ إِنْ ظَلَمَ نَفْسَهُ أَوْ ارْتَكَبَ فَاحِشَةً، فَيَتُوبُ وَيَسْتَغْفِرُ - إِنْ كُنْتَ كَذَلِكَ فَأَنْتَ تَقِي، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ فَهَذَا هُوَ السَّبِيلُ، وَمَنْ تِلْكَ الْآيَاتِ قَوْلُ اللَّهِ - تَعَالَى -: ﴿وَسَيَجْزِيكَ اللَّهُ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى. وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى. إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى. وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ فَإِنْ كُنْتَ مِنَ الَّذِينَ يُؤْتِي مَالَهُ فَيَتَصَدَّقُ وَيُزَكَّى، وَلَا يَبْتَغِي بِذَلِكَ الْإِنْفَاقَ إِلَّا وَجْهَ اللَّهِ تَعَالَى فَأَنْتَ تَقِي، وَسَوْفَ يَجْنِبَكَ اللَّهُ النَّارَ الَّتِي يَصْلَاهَا الْأَشْقَى، وَسَوْفَ تَحَقِّقُ أَحْلَامَكَ رِخَاءً فِي الدُّنْيَا وَنَعِيمًا مَقِيمًا فِي الْآخِرَةِ.

إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا

هـ - والتوبة تجب ما قبلها كما أن الإسلام يجب ما قبله، يقول بعض الناس هل من المعقول أن يغفر الله لى كل هذه الذنوب، يراها ضرباً من المحال، والله عز وجل - واسع رحيم، وسعت رحمته كل شيء يقول عز وجل مخاطباً عباده الذين أسرفوا على أنفسهم في المعاصي والذنوب: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ويقول تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ فَأَيُّ شَيْءٍ أَوْضَحَ مِنْ هَذَا وَأَدْلَى عَلَى رَحْمَةِ اللَّهِ الْوَاسِعَةِ الَّتِي يَكْتُبُهَا لِعِبَادِهِ الَّذِينَ يَتُوبُونَ إِلَيْهِ، وَقَدْ قَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾.

وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ وَقَدْ فَهَمَ هَذِهِ

الآية من سورة الفرقان جماعة من هواة الدعاة خطأ، حيث زعموا أنه بمجرد التوبة تتبدل السيئات حسنات وهذا لم يقل به عالم، فإن العلماء جميعاً على أنه لكي تتبدل السيئات حسنات لابد من عمل حسنات بعد التوبة، يذهب الله بها تلك السيئات، لقوله تَعَالَى: ﴿وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾ وقوله - سبحانه وتعالى -: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ وذكر الزمخشري - رحمه الله - بعض الأمثلة على ذلك ومنها أن الذي تاب من السرقة عليه أن يعمل بعد أن يؤدي ما سرقه إلى أصحابه، وأن الذي كان يزني عليه إذا تاب أن يتزوج وأن الذي كان يهين المصحف عليه أن يكرمه إذا تاب ويدفعه فوق رأسه، ويقبله كثيراً.

وهكذا، تصور هذا الحلم الذي يبدو عسيراً عند كثير من الناس وهو عند الله - عز وجل - هين؛ لأنه الغفور الرحيم، يغفر الذنوب جميعاً، فقط عليك أن تتوب، فتندم على ما فات من إساءة، وتعقد العزم على عدم العودة إليه في المستقبل وتعمل العمل الصالح الذي يذهب الله به عز وجل سيئاتك وإن كانت التوبة عن أمور مادية فلا بد من رفعها إلى أصحابها فإن لم تكن موجودة كانت في النية والذمة إلى أن يفتح الله عز وجل ويرزق، فإن عاجلت النية من قصد ذلك دون أن يقضى ما عليه فهو في ذمة الله - عز وجل - والله واسع وكريم وقد ورد أن صاحب الحق يأتي به الله في الآخرة، ويريه قصراً في الجنة يزعم من فرط بماله أنه قد أعد لنبي أو شهيد، فيقول الله - تَعَالَى - له: إنه معد لمن عفا عن أخيه المسلم، فيقول: ربي قد عفوت، فيأمره الله - تَعَالَى - أن يذهب إلى قصره، وأن يأخذ أخاه معه إلى قصر له آخر.

ولكن ما السبيل إلى التوبة النصوح، والناس معظمهم يعرف التوبة كلمات، والتوبة التي هي كلمات كما قال العلماء توبة الكذابين. كالاستغفار الذي هو باللسان، أي أن يقول تبت إلى الله، ورجعت إلى الله، وندمت على ما فعلت، وعزمت على أننى لا أعود

إلى المعاصي أبداً، وذلك في كل المناسبات لا سيما مناسبة حضور عقود القرآن في المساجد، والقاعات حيث يبدأ المأذون بهذه الكلمات، ويطلب من الناس أن يعيدوها وراءه .

والله - عز وجل - يفرح بتوبة عباده الصادقين فرحاً أشد من فرحة رجل افتقد دابته وعليها زاده وماؤه، وتعب في العثور عليها، فلما يئس نام تحت شجرة في الصحراء الشاسعة انتظاراً للحدث وفجأة فتح عينيه فإذا بها إلى جانبه، جاءته وعليها زاده وماؤه، فقال من شدة فرحته: اللهم لك الحمد، أنت عبدى وأنا ربك وهذا الحديث الشريف يبين لنا مدى تحقق هذا الحلم الذى يبدو عسيراً عند الناس، وهو عند الله - عز وجل - يسير يسير، فانظر إلى هذا اليسير كيف يتحقق بالتوبة، تلك التوبة النصوح التى تعنى فيما تعنى ألا ينوى الرجوع إلى الذنوب أبداً، وكثير من الناس يسألنى هذا السؤال، وماذا لو رجع المرء إلى الذنب مرة أخرى، وثالثة ورابعة، وقد أجاب عن هذا الغزالي رحمه الله بأنه يجوز، ولا بد من توبة في كل مرة، فلما سئل عن ذلك قال: لو قفلت باب التوبة في وجهه فمات، مات على معصية، فإن مات، وقد تاب فقد مات على توبة فكان ذلك خيراً له، وأقول: قد يعود رغماً عنه؛ لأنه ضعيف ونفسه أمارة بالسوء، وثالث ذلك الشيطان، ثلاثة أشياء تجعل الإنسان يقترب المعاصي، لكن المهم أنه لا يصر عليها قال تعالى: ﴿وَلَمْ يَصِرُوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ وهناك من يسأل: هل لقبول الله - عز وجل - توبة العبد من علامات، وقد أجيب عن هذا السؤال من قديم أيضاً بأن علامة ذلك أن يرى الإنسان نفسه منتقلاً من حسنة إلى حسنة زادنا الله حرصاً على عمل الصالحات والحسنات وباعد بيننا وبين السيئات حتى ينصلح حالنا في الدنيا والآخرة .

الاستغفار يحقق عسير الأحلام

٦- وإله عز وجل - يقول: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا. يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا. ويمدكم بأموالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾.

تصور نزول المطر، الذى يبشر بإنبات الأرض، والأموال والبنين، والجنت والأنهار، هل ترى ذلك من قبيل الحلم اليسير، لاشك أنه صورة من صور الخيال أحياناً تعترى المرء، فيفكر، ويقول: لو كان لى بيت صغير فى منطقة شبه عشوائية، ولى دكان أو محل، ومعى سيارة مستعملة أو موتوسيكل، ثم يخرج زفرات الضعف من أعماقه وهى قوية ويقول من عمق قلبه: آه.. أحلام، فما عسى أن يقول فى رده على إنسان يقول له: ما رأيك فى أن تمطر أرضك وتخضر صحاريك، وتكون لك أموال بلا عد، ويكون لك بنون، وجنت، وأنهار، ألا تراه قد يجيبه بقوله: هل شربت شيئاً؟ أو بقوله: هل بك جنون، أو بقوله: ياعمى، لا تسخر منى، أرجوك، إننى رجل على قد حالى فقير صحيح، لكننى لست طماعاً، ولا ناقص عقل، حتى تقول لى مثل هذا الكلام، أو يقول له: هل ترى أننى أعمل فى مجال المخدرات مثلاً، أو أتنى سوف أسرق سرقة عظيمة، والحق أن القائل الله - عز وجل، وأن المخاطب ليس مثل بنى إسرائيل الذين قالوا لكليم الله موسى - ~~عليه السلام~~ - عندما قال لهم: إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا: أتتخذنا هزواً، وفى قراءة: أيتخذنا هزواً والله أصدق الصادقين، وخير الرازقين، وقد قال، فمن أصدق من الله قبيلاً؟ ولكن الله عز وجل - جعل ذلك الذى يعد ضرباً من الخيال معلقاً على الاستغفار، وقد يظن كثير من الناس أن معناه أن تقول: أستغفر الله العظيم كل يوم مائة مرة، أو ألف مرة، وبهذا يتحقق الوعد الكريم، وما ذلك بصواب؛ فإن الاستغفار باللسان، كالتوبة باللسان، استغفار كذابين، وتوبة كذابين وذلك لأن معنى: استغفر: طلب المغفرة، وطلب المغفرة كطلب أى شيء، لا يكون باللسان، وإنما يكون

بالسعى والعمل، نالت مريم -عليها السلام- طعامها وهي في حال ضعف ونفاس بهز النخلة، ﴿وَهَزِيَ إِلَيْكَ بِجِدْعِ النَّخْلَةِ تَسَاقُطَ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا. فَكَلِيَ وَأَشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾ ولم تنله باللسان وعلم الله -تعالى- عبده داود صنعة لبوس، وألان له الحديد وهو مضرب المثل في الأكل من عمل اليد "وإن نبي الله داود -عليه السلام- كان يأكل من عمل يده" ورعى خاتم المرسلين سيدنا محمد -ﷺ- الغنم، وأكل من عمل يده وقال عليه الصلاة والسلام- وقد سئل: هل رعى الغنم: ما بعث الله نبياً إلا رعاها .

ولا ينال طالب العلم العلم باللسان، وإنما يناله بقوة الاستذكار، والتحصيل، والصبر، والتردد الدائم على دور العلم. أو على كبار الشيوخ، وهكذا، قال الله - عز وجل: ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتِنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ والله در شوقى حيث قال: وما نيل المطالب بالتمنى ولكن تؤخذ الدنيا غلابا

والمغفرة أغلى مطلب عند العاقل، الذى يؤمن بأن عذاب الله شديد، وما له من واق، وهى لا تنال كذلك باللسان، وإنما تنال بالسعى والعمل، فمن أقام الصلاة فقد استغفر الله، ومن أتى الزكاة فقد استغفر الله، ومن حج من مال حلال أو اعتمر فقد استغفر الله، ومن صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه، ما لم يكن حظه من صيامه الجوع والعطش، أى إذا لم يلتزم بأداب الصوم كان حظه من صيامه الجوع والعطش، قال -ﷺ- "من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه" وفى النوافل عشرات المواضع التى تحقق الاستغفار، الذى به تتحقق الأحلام اليسيرة، والتى هى عند الله -عز وجل- يسيرة جداً، ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ومن ذلك إمطة الأذى عن الطريق، ومعاونة المحتاج، ولو بجرعة ماء، وطلاقة الوجه عند لقاء الناس، وعبادة المريض، وتشميت العاطس، ومحاسبة النفس، والتجاوز عن

المعسر، فى الحديث يقول النبى -ﷺ- "حوسب رجل ممن كان قبلكم، ولم يكن له من الخير شىء إلا أنه كان يعامل الناس، وكان يقول لصبيانته: تجاوزوا عن المعسر: فقال الله لملائكته: نحن أولى بذلك منه، تجاوزوا عنه" فإن أردت الجنات والأثهار والأموال، والبنين فاستغفر الله - عز وجل- على معنى الاستغفار الصحيح بأن تتخذ إلى ربك سبيلاً، قال الله - عز وجل-: ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ ولا تفهم معنى الاستغفار على أنه عدد على المسابح من الكلمات، والقلب قاس، والخطا مكبلة عن المسير فى سبيل الاستغفار!

فعند الله مغانم كثيرة

٧- أمر الله عز وجل عباده المسلمين أن يتبينوا إذا ضربوا فى الأرض، ألا يقتلوا أحداً ألقى إليهم السلام يقولون له لست مؤمناً ابتغاء عرض الحياة الدنيا، ثم قال: فعند الله مغانم كثيرة، تأمل هذه الآية (٩٤) من سورة النساء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

يتصور بعد الناس أنه إن لم يجمع من هنا وهناك فسوف يضيع، مثل هذا الذى يقول: لو اتبعنا الحلال وعملنا بما يجب أن يكون لمتنا جوعاً، ومثل هذه الآية يرد على هؤلاء الزاعمين بأن الحلال لا يغنى، وأنه سبيل إلى الفقر والحاجة؛ فلا بد من الميل هنا وهناك لكى تمشى الأمور، وهذا منطق عجيب، وفلسفة شيطان لأن رب العالمين - سبحانه وتعالى - يقول: ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ أى يا من تبتغى عرض الحياة الدنيا عن طريق القتل الذى يبتغى من ورائه الغنائم والسلب، ويا من تبتغى عرض الحياة الدنيا عن طريق الغش والتدليس، اعلموا

جميعاً أن عند الله - تعالى - مغانم كثيرة، ومغانم الله الكثيرة لا تنال إلا بطاعته، والبعد عما حرم ونهى، ولا يفقه هذا إلا من كان قلبه مطمئناً بذكر الله، أى بذكر وعده وقد وعد، ووعدده الحق، والمشكلة عند الإنسان وحاشا لله أن تكون المشكلة عند الرحيم الرحمن، الذى لا يعجزه شيء فى الأرض ولا فى السماء، إنما المشكلة عند الإنسان الذى توسوس إليه نفسه الأماراة بالسوء، وكذا الشيطان وشيطان الإنس أشد خطراً على الإنسان من شيطان الجن؛ لأن شيطان الجن خناس، أى متراجع منصرف إذا قال العبد "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم" أما شيطان الإنس فقد تقول: أعوذ بالله؛ فيكملها لك، ثم يظل جاثياً على صدرك لا يتحرك، ويأمرك بالسوء والفحشاء، ويزين لك سوء عملك، حتى تراه حسناً، وهو الذى يقول لك: إن الحلال لا يكفى - ولا بد من شيء من الحرام، حتى يمشى الحال، وبئست هذه الحال التى لا تمشى إلا بالحرام، وفى الحلال غنى وكفاية لمن وفقه الله - تعالى - ومن دعاء المسلمين: اللهم أغننا بحلالك عن حرامك، وبطاعتك عن معصيتك ولن يغنى المرء بالحلال عن الحرام إلا إذا وجد المرء لذة الحلال، فللحلال لذة لا يشعر بحلاوتها إلا من أوتى التقوى والإيمان، وكذا للحرام لذة تطيب عند عشاقه الذين لا يجدون للحلال طعماً، والعياذ بالله، فقد طاب لهم لطول عهدهم به، وهو لا يغنى، أو كما قلت فى عمل عملته تحت هذا العنوان (الماء الذى لا يروى) إن الحرام عند أهل الحلال بمثابة الماء الذى لا يروى، لكنه عند أهل الحرام الرى بعينه، وشتان ما بين ماء يروى وماء لا يروى عند التحقيق، وعند النظر بموضوعية .

وحين يقول الله - عز وجل - : ﴿فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ يتصور العاقل أن كثرة الغنائم التى عند الله هى على قدره عز وجل، لا على قدر الناس. فليس يحدها حد، أو يعدها حد وإنما هى بلا حدود، ولا حصر، وقد قال عز وجل: ﴿وَأَنْ تَعِدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾.

فهذا من قبيل الأحلام العظيمة التى هى عند الله - عز وجل - يسيرة، ولكن دونها أهوال عند الذين يصعب عليهم أن يتبينوا وأن يتحرروا الحلال، ألا ترى إلى قوله - عز وجل - : ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾.

فالصلاة كبيرة عند تارك الصلاة، والصبر عزيز المنال عند الذى لم يتعود الصبر، ولم يؤمن به، ولم يرقب عاقبته، ويتطلع إليها، وكذا التحرى للحلال صعب، ودونه أهوال عند الذى يريد أن يصطاد أى شيء، ويبلغ أى شيء، أما عند المتقين فأمر سهل؛ لأنهم وطنوا أنفسهم على الحلال، فإذا دخل فى بطونهم شيء من الحرام استفرغوه، كما فعل الصحابيyan الكبيران الجليلان أبو بكر وعمر - رضى الله عنهما - حين دخل جوفهما لبن من إبل الصدقة استفرغاه، وإذا كنا لا نطمع فى مثل هذا الورع الكبير فإننا على الأقل ننشد ما دونه من اجتناب الكبائر التى تحول بيننا وبين تحقيق أمانينا من الأحلام العسيرة التى هى عند الله يسيرة!

٨- فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله

ومما يحقق الأحلام العسيرة التى هى عند الله - عز وجل - يسيرة جداً اعتزال الباطل والضلال، على عكس ما عليه كثير من الناس الذين يزعمون أهم إذا اعتزلوا الباطل والضلال ماتوا جوعاً وضاعوا، مفارقة عنيفة بين المنطقيين، والدعوتين، فمع أيتهما تكون؟ ومع من من أصحابهما تتجه؟

يقول الله - عز وجل - : ﴿فَلَمَّا عَتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا. وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾.

يقول الزمخشري فى الكشاف ١٦/٣: "ما خسر على الله أحد ترك الكفار الفسقة لوجهه: فعوضه أولاداً مؤمنين أنبياء (ومن رحمتنا): هى النبوة عند الحسن، وعن الكلبي: المال والولد، وتكون عامة فى كل خير ديني، ودينوى أوتوه).

هذا الكلام الذى نقلته عن الزمخشري. وغيره، يجب أن تدرسه الأجيال منذ نعومة أظفارهم، ويجب أن يشيع فى الخطاب الدينى، الذى صار قضية مهمة، من حيث أهدافه وأسرارته ومقاصده، وأسلوبه، وكل ذلك مؤسف جداً إن الخطاب الدينى المغيب ينبغى أن يعود، وينبغى أن يشيع فى الناس حتى تكون حياتهم أطيب حياة؛ لأن الحياة لن تكون أطيب حياة إلا بهذا الخطاب الدينى، ومنه قول الله - عز وجل - ﴿فَلْيَا عِزْلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا. وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا﴾.

لقد جاء الولد، وجاء المال لما اعتزلهم إبراهيم - عليه السلام - الكفرة الفسقة لوجه الله - تعالى - كما قال الزمخشري .

ولا شك أن اعتزال الحرام معناه زيادة الحلال. فهل تفكر فى ذلك الذين يدعون إلى التمسك بالحرام؛ لأنه لا سبيل سواه، ولو تركه الإنسان ضاع، ومات جوعاً أو كاد! إن اعتزال الحرام يحقق عسير الأحلام، فضلاً عن يسيرها، ولكن دونه أهوال من الوهم، نعم إنه الوهم لا الحقيقة الذى يسيطر على عقول الناس، ومن ثم على قلوبهم، فيزعمون أن ترك الحرام فيه ضياع لهم، وأنهم لا يعرفون غيره، كساقى الخمر مثلاً الذى يقول وقد تبين له حكمها مؤخراً: إنها مهنتى الوحيدة ولا أعرف غيرها، وكالذى فتح صالة للقمار، يقول: لقد نشأت عليها وورثتها عن والدى، وهكذا، أمثلة كثيرة، يدخل فيها تاجر المخدرات، وتدخل فيها البغى، التى تدعى أنها لولا الفاحشة ما استطاعت أن تربي أخواتها اللاتى تركهن أبوها قطعاً حمراء، ولا عائل لهن، صحيح لهن أعمام، وأخوال ولكن لا ينفع عم فى هذا الزمان ولا خال، كل فى حاله لقد تربين أحسن تربية، ونشأن أرق تنشئة، وتعلمن فى أرقى المدارس، والجامعات، وهى شهيدة الكفاح، والنضال، والجهاد، إنها الشمعة التى احترقت من أجل أن تضئ لغيرها الطريق، ولو أن رجلاً أو

امراً قالاً لها: كنت تبيعين ليموناً عليهن تسخر، وتفرقع اللبانة، وتنظر إلى أحد الموافقين لها، المؤمنين بفكرتها وتضحك بصوت عال، كأنه فرقة نفس خاوية، نبت صداها فى واد سحيق من النفوس الخربة التى يسعداها مثل هذا الصوت، وكثير من الناس يطربه صوت الغراب، ولا يطربه صوت البلابل؛ لأنه اعتاد سماعها؛ فأدمنها، وكذلك الذى اعتاد الحرام، واتخذ سبيلاً دون الحلال، وحين ترسل هذا الصوت البغيض تقول: اسمع والنبي ماذا يقول... ليمون، والله فكرة، وتسخر كثيراً، ثم ترسل حكمتها الفاسدة قائلة: ومن الليمون هل كن يتعلمن ويسكن فى أوسع البيوت، ويدخلن أرقى الجامعات الخاصة وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ نعم، نظرت هذه المرأة كما نظر غيرها إلى الكثير الخبيث، وإلى القليل الطيب، فقارنوا بين الكثير والقليل بغض النظر عن صفة كل، أى بغض النظر عن طيب القليل الذى يجعله كثيراً فى نظر أهل الحلال، وبغض النظر عن خبث الكثير الذى يجعله تافهاً منبوذاً عند أهل الحلال أيضاً.

وفى هذا السياق يطيب لى أن أقول: إن الإسلام ليس ضد الكثرة، بدليل قوله - تعالى -: ﴿فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ وقوله - سبحانه -: ﴿وَعِنْدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ تَأْخُذُونَهَا﴾ وقد يكون الليمون وغيره بالفعل قليلاً، لكنه مبارك فيه، أى يكفى. ويتفوق من يتعلم فى ظلاله، بخلاف الكثير من الغباء وحكمة الإسلام تقول: قليل يكفيك خير من كثير يطغيك".

٩- وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل

والتوكل على الله - عز وجل - حق توكله سبيل تحقيق الأحلام العسيرة، والتى هى عند الله - عز وجل - يسيرة جداً، ألسنت ترى ما أصاب المسلمين من القرح يوم أحد، فلما جاء اليوم التالى، وهو يوم الأحد السادس عشر من شوال من السنة الثالثة

للهجرة نادى رسول الله - ﷺ - الناس للخروج وراء القوم، ليريههم أن بهم قوة، فخرج الناس رغم جراحاتهم؛ فقال لهم أحد الناس: إن الناس (الكفار) جمعوا لكم ما لا قبل لكم به فاحذروهم؛ فلم يفت ذلك فى عضدهم، وإنما زادهم إيماناً، وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل، وقيض الله - تعالى - لرسوله - ﷺ - وللمسلمين من فت فى عضد المشركين الذين نوا أن يرجعوا إلى المدينة للقضاء عليهم (أى المسلمين) تماماً بعد هذا القرع الذى أصابهم بالأمس، وهو معبد الخزاعى، وكانت خزاعة عيبة رسول الله - ﷺ - مسلمهم وكافرهم، وقد عزى معبد وهو يومئذ على شركه، رسول الله - ﷺ - فيما حدث لأصحابه، بالأمس، وقال له: وددنا أن الله عافاك فى أصحابك، واستأذنه فى أن يلحق بالمشركين. ويقول شيئاً، فأذن له، ولحق بهم، ولقى أبا سفيان وقال له: إن محمداً - ﷺ - قد جمع لهم ما لا قبل لهم به من الجنود والأسود، حتى إنه قال فى ذلك شعراً، أوله:

كادت تهد من الأصوات راحلتى إذا سالت الأرض بالجرد الأماثيل

وبناء على ذلك رجع أبو سفيان ومن معه إلى مكة، وجاء المسلمون فلم يلقوا كيداً، قال الله - تعالى -: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ. فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسَّهْمُ سَوْءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾.

انظر إلى من خرج جريحاً وهو متوكل على الله، لم يستجب لداعى النوم والخلود إلى الكسل، ولم يقل إنى معذور، فأنا جريح، ولا قبل لها بهؤلاء الجنود، وإنما خرج وهو قوى بدينه، وثقته بربه، وتوكله عليه، قالوا حسبنا الله، أى كافينا عز وجل، فكفاهم، وتحقق الحلم فانقلبوا بنعمة من الله وفضل، لم يمسسهم سوء، واتبعوا رضوان الله.

وقولهم: حسبنا الله قد اختلف عندنا، فزعمناه من الدعاء وهو ليس دعاء، يقول لك: حسبى الله ونعم الوكيل منك، ولا أصل لهذا التعبير، ولا معنى للدعاء فيه، إنما هو جملة خبرية معناه: أن الله كافينا مكر الماكرين، وسوء الظالمين، وظلم المفسدين وقد كفاهم فى الوقت الذى ظللنا فيه نقول العبارة نفسها ولكن على سبيل الدعاء، دعاء بعضنا على بعض، بمناسبة وغير مناسبة، وبحق وبدون وجه حق، وما تحركنا ونحن أصحاب فضل عن كوننا مرضى أو مجروحين.

وانظر إلى قوله - تعالى -: ﴿إِنَّمَا دَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

ولطالما أخافنا الشيطان، ووسوس إلينا بأننا لا طاقة لنا بكذا ولا كذا، حتى فى أيسر الأمور، ولذلك تخلفنا عن كثير من الفضائل والأعمال، وسبقنا غيرنا إليها وهم غير مسلمين؛ لأن سنة الله - تعالى - فى الكون لا تتخلف، وهى أن من جد وجد ومن زرع حصد، مسلماً كان أو غير مسلم، ولذا حين وجد النبى - ﷺ - بستاناً، وعليه عجوز، سألها - ﷺ - من غرس هذا البستان؟ مسلم أم غير مسلم فقالت: مسلم يا رسول الله، فسر - ﷺ - سروراً عظيماً: لأنه علم أن الذى غرس البستان مسلم، ولذلك أقول: إن من أراد أن يبعث السرور إلى رسول الله - ﷺ - فليغرس بستاناً، يأكل منه إنسان أو حيوان، أو طير، وله به صدقة كما جاء فى هذا الحديث الذى رواه البخارى فى صحيحه.

وقد دخل عدى بن حاتم على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - ﷺ - وقال له: ألم تعرفنى؟ فقال عمر: كيف! وأول صدقة بيضت وجه رسول الله - ﷺ - صدقه طيئ التى جئت بها.

فانظر إلى ما بيض وجه رسول الله - ﷺ - وإلى ما بعث فى وجهه الكريم هذا السرور العظيم، وقس عليهما كل عمل، قال الله

فيه: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْنُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نِيلاً إِلَّا كَتَبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾، ورب إنسان تراه على هيئة ضعيفة أو ذا شهادة علمية متوسطة وقد حصل الكثير من المنافع والخيرات. أو بلغة هذا الكتاب حقق من الأحلام ما لم يحققه ذو الهيئة العظيمة والشهادة العليا، ولم يحصل عشر ما حصل الأول، والسبب في ذلك أن الأول اجتهد، وسافر، وغامر على بصيرة، وتوكل على الله حق توكله فيما كان الثاني ينام ملء جفونه، ويعمل قليلاً، ويكسل طويلاً ولا مانع أن يكون من الذين يقولون: حسبي الله. ونعم الوكيل على الوجه غير المعهود، فلا جرم أنه هو الذي ظلم نفسه وتخلف وإن كان على لسانه: هي الدنيا تعطى الحلق من لا أذن له، وليس في ذلك من الصواب شىء ٤.

١٠ - وكذلك ننجي المؤمنين

حين نجي الله - عز وجل - يونس - عليه السلام - من الغم وهو في بطن الحوت، وفي عمق الظلمات قال عز وجل: ﴿فَاسْتَجِبْنَا لَهُ وَنَجَيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾.

أبدأ بهذا حتى أرد على الذين يقولون في كل موضع من مواضع العفة، والنبيل، والكرامة، والفوز في حياة الأنبياء: ياسيدي، إنهم أنبياء، وأين نحن من الأنبياء! أقول لهم: تدبروا قول الله - تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي إذا كنت مؤمناً. وكنت في غاية الضيق، وأزمة الأزمات نجاك الله منها، كما نجي عباده المؤمنين من الأنبياء المكرمين المعصومين، ولا شك أن نجاتك من الكرب العظيم، والظلمات التي بعضها فوق بعض من الأحلام العسيرة التي هي عند الله - تعالى - يسيرة جداً ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ولكن السبيل إلى ذلك هو الأهوال، أهوال نفس لا تشتهي أن تقول إنها ظلمت وأساءت، وقد

قال يونس - عليه السلام - ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ واتهام الداعي نفسه بالظلم من ركائز الدعاء، أي مما يستند عليه الدعاء كي يصعد إلى السماء، ويجيبه الله - عز وجل - وكثير من دعائنا لا يركز على شىء مما يركز عليه الدعاء، ومن ذلك أن يتهم الداعي نفسه بالظلم، على سبيل الحقيقة لا المجاز وقد قال يونس - عليه السلام - ﴿إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ مع التسييح، أي نزه الله - تعالى - عن كل نقص لا يليق بذاته المقدسة.

واتهم نفسه هو بالظلم، وهذا معنى التسييح الحقيقي، أنك تنسب الكمال إلى الله - عز وجل - وتنسب النقص إلى نفسك وقد قال الله - تعالى - فيه - عليه السلام - في آيات الصافات: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ. لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

أي أن التسييح بحق هو الذي نجاه الله تعالى به، وقد قال كلیم الله موسى - عليه السلام - ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

ومن قبل قال آدم وحواء: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

فالنبيون يقولون: ربنا ظلمنا أنفسنا، وغيرهم إلا من رحم الله يأبى أن يقول ذلك؛ بل العجيب أنني سمعت أمة من الناس يقولون: يارب، ماذا فعلت حتى تبتليني بكذا وكذا، وأنا عمرى ما عصيتك، إننى أحبك يارب، وأصلى لك، وأزكى وأتصدق، وأحج وأعتمر، وهكذا، وهذا منطق عجيب لأن الإنسان غير معصوم، ولا شك أنه ظالم نفسه من ناحيتين .

الأولى: أنه مقترف ذنوباً بلا شك؛ لأنه غير معصوم فكل بنى آدم خطأ، وخير الخطائين التوابون.

والثانية: أنه ظالم نفسه بسوء سلوكه وتعامله مع الأسباب التي تؤدي به إلى كوارث يظنها قدراً مقدوراً وهى من عند نفسه؛

لقله - تعالى - ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ ولو أن إنساناً كتب ما يحدث له من المصائب والكوارث، لما وسعته المجلدات الواسعة، ومن ذلك سوء اختياره زوجه، حيث اختاره على أساس من الهوى والشكل، لا على أساس من الدين، فكانت النتيجة شقاقاً وعدم وفاق، وسوء عشرة، وتكدير صفو، ولم يكن التعقيب "رب إنى ظلمت نفسي" وإنما كان التعقيب: "قسمة ونصيب، وهذا حظي، وذاك ابتلاء الله لي" والزواج اختيار، وليس قسمة ونصيباً كما يدعى الناس ومن ذلك أن يقبل المرء على مشروع لا خبرة له به، ولا دراسة جدوى، وتكون النتيجة خسارة، وضياح مال، ويكون التعقيب: لا حظ لنا، لا قسمة لنا، لو كان لنا فيه نصيب لأكلنا منه الشهد، ولكن الله لم يرد، ومن ذلك أن يلعن الرجل أباه، فيلعن الرجل أباه، ويلعن أمه فيلعن أمه، وآبائه وأجداده، ثم يبكي آخر الأمر، وقد مسحت بكرامته الأرض، ويقول: يارب ماذا فعلت، وماذا أجرمت، ولم يقل ظلمت نفسي، وأنا السبب، ومن ذلك أن نسلم سيارتنا أحد أبنائنا ونحن نعلم أنه لا يتقن قيادة السيارات، فإذا به يضيعها وهذا أهون إذا سلم هو أو يضيع يضيع معها وهذا خطب جلل، ويكون التعقيب: قضاء وقدر وأعطى عمراً، وارم بي في البحر، وهذا أجله، ولا أحد يموت ناقص عمر، إلى آخره، والحق أننا يجب أن نقول: ربنا ظلمنا أنفسنا، حتى ينجينا الله من كل كرب، ويخلف علينا .

١١ - وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه

الإتفاق سبيل إلى تحقق عسير الأحلام التي هي عند الله تعالى يسيرة ورد في الصحيح أن رجلاً كان يمشى في صحراء، فرأى سحابة في السماء، وسمع صوتاً يناديها: ارجعي، واسقي ضيعة فلان فرجعت، وأمطرت، ونزل الماء، ومضى في طريق

تبعه ذلك الرجل حتى وجد رجلاً على ضيعة يحول إليها ذلك الماء، فسأله عن اسمه، وعلم أنه ذات الاسم الذي سمعه في الأفق، فأخبره الرجل بأنه ينفق ثلث ثمرها على عياله، وينفق ثلثها الآخر على المساكين، ويرد فيها الثلث الأخير أي ينفقه عليها، وقد روى الإمام عبد الله بن أبي جمرة أن رجلاً كان يؤذى الناس، فشكوه إلى نبي فيهم، فسأل الله - تعالى - أن يرحمهم من أذاه، وأنبأ الله تعالى نبيه أن هلاك ذلك الرجل يوم الأربعاء، فبشر النبي الناس، ولما جاء يوم الأربعاء وجدوه عائداً وكان صاحب خز، لم يمسه سوء، فتعجب النبي والناس، فسأل الله تعالى؛ فقال له، سله ماذا فعل، فسأله فقال: لم أفعل شيئاً، وإنما أعطيت مسكيناً رغيفين فقال الله - تعالى - وبهما أنجيته، ومن ثم قال عليه الصلاة والسلام: "مصانع المعروف تقى مصارع السوء" فمن أراد أن يحقق عسير الأحلام التي هي عند الله يسيرة جداً فليصدق، وفي الصحيح الذي رواه البخاري وغيره.

يقول - ﷺ -: "داؤوا مرضاكم بالصدقة" وفيه "اتقوا النار ولو بشق تمرة" تصور كيف أن الصدقة سبيل إلى مداواة مريض قد يعجز الأطباء المهرة عند معالجته، ولا بد من الأخذ بالأسباب، والتداوى متى وجدت تلك الأسباب وهي لا تغنى عن الصدقة، والدعاء، والتضرع إلى الله - عز وجل - ﴿وَإِذَا مَرِضْتَ فَهُوَ يَشْفِي﴾.

وتصور أعظم حلم في رأس العاقل وقلبه وهو النجاة من النار كيف يتحقق بالصدقة أيضاً، وقد قال الله سبحانه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾.

قال الله - عز وجل - ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾. ومن سبل هذا الفوز العظيم أن يتصدق .

وقد روى مالك في الموطأ أن النبي - ﷺ - قال: إن المتصدق في ظل صدقته يوم القيامة حتى يحكم الله بين العباد.

فالصدقة أفضل العبادات، وفي البخارى وغيره يقول - ﷺ - ما من يوم يصبح على العباد إلا وملكان يخرجان، يقول أحدهما: اللهم أعطى منفقا خلفا ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكا تلفا.

والله عز وجل يقول: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ وخلف الله - عز وجل - عظيم - ألا ترى إلى قوله عز من قائل: ﴿مَثَلِ الَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سَنَابِلٍ مِئَةٌ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

والصدقة من ركائز الدعاء بلا شك، وقد ورد أن النبي - ﷺ - قال: اللهم صل على آل أبى أوفى، وكان آل أبى أوفى قد جاءه بالصدقة، وذلك تصديقا وتحقيقا لقول الله تعالى ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾.

أقول: ومن ثم كان على المسلم أن يدعو الله، ويسأله من فضله إثر صدقة، وقد ذكر ابن عبد البر - عليه رحمة الله - أنه يسن للمتصدق أن يسأل المتصدق عليه أن يدعو له كما يسن له أن يسأل المريض أن يدعو له لأن الله - تعالى - عنده والفلاح من القضايا الكبرى بلا شك، وهو يتحقق لمن وقاه الله - عز وجل - شبح نفسه، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ يُوقِ شَحْنَفَهُ فَإِنَّكَ هُمُ الْمُنْصَلِحُونَ﴾.

وقد كان النبي - ﷺ - أجود الناس وأكرم الناس وكان أكرم ما يكون في رمضان، كان أسرع بالخير من الريح المرسلة.

فمن ذا الذى يتأسى به، فلا يكون كريما فى حالة، وإنما يكون كريما فى حياة، حتى يحقق عزيز الأحلام فضلا عن يسيرها فإن الله تعالى كريم يحب كل كريم.

١٢ - رب أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره

أن تقسم على أحد، فيبر قسمك بأن يأكل؛ فيأكل، أو بأن يجلس فيجلس، أو بأن يسكت فيسكت، وهكذا شىء بلا شك يسرك وقد يكون ذلك حلما صعب المنال بالنسبة إلى غيرك خصوصا فى زمان كزماننا، زمن العقوق، ولعلك تذكر الحديث الذى ورد فيه أن خير ما يؤت المرء بعد تقوى الله - عز وجل - زوجة صالحة، إذا نظر إليها سرته، وإذا أمرها أطاعته، وإذا أقسم عليها أبرته.

فما بالك بمن إذا أقسم على الله - عز وجل - أبره الله! وأنت كما مثلت لك تقسم على أحد من الناس بأن يفعل شىئا يسيرا بوسعه أن يفعله، لكنه من غير شك عاجز عن فعل ما لا يستطيع، ومن ثم فإن أقسمت عليه لم يبر قسمك؛ لأنه عاجز عن الوفاء بما أقسمت عليه، والله - عز وجل - لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء، فاسأل الله من فضله العظيم ما تشاء، وأنت موقن بالإجابة؛ فقد قال سليمان - عليه السلام -: "رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى إنك أنت الوهاب" وقد استجاب الله دعاءه ووهب له ملكا ما وهبه أحدا من بعده ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾. وسخر له الريح تجرى بأمره، وعلمه منطق الطير، وغير ذلك.

وقد روى البخارى فى صحيحه هذا الحديث: "رب أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره" حيث قاله النبي - ﷺ - فى أنس بن النضر عم أنس بن مالك بن النضر حين كسرت أخته الربيع بنت النضر ثنية امرأة أبى أهلها إلا القصاص ولم يقبلوا العفو، ولا الأرشق (الدية)؛ فقال أخوها: أو تكسر ثنية الربيع؟ قال - ﷺ - حد الهه القصاص؛ فقال: والذى بعثك بالحق لا تكسر أبدا؛ فقبل أهل المكسورة العفو فقال عليه الصلاة والسلام: رب أشعث أغبر، لو أقسم على الله لأبره، ونحن إذا حاولنا أن نفقه السر فى ذلك وقفنا

عند صدق الرجل، الذي خرج يوم أحد مع النبي - ﷺ - وقاتله قتالاً عنيفاً حتى لقي الله - تعالى - شهيداً، وبه جراحات جعلت الناس لا يتعرفون عليه؛ إذ ضيعت الجراحات معالمه، فلم تعرفه إلا أخته، عرفته بعلامة كانت في قدمه - ﷺ - مثل هذا المجاهد الكبير الذي لم يول الأعداء دبره، وجاهد في الله - عز وجل - حق جهاده إذا أقسم على الله أبره الله، وقد قال ربنا - عز وجل - : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا﴾. وفي الحديث الصحيح: إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما زال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار وما زال الرجل يكذب، ويتحرى الكذب، حتى يكتب عند الله كذاباً والصدق له بعد آخر، بخلاف المعنى الشائع المعروف، وهو الإخبار بالواقع كما هو، ذلك البعد هو الصدق في المواقف التي تثبت استقرار اليقين في قلب المؤمن من عدمه ومن ذلك الصدق عند الابتلاء، ألا ترى إلى قوله الله - عز وجل - في صدر سورة العنكبوت: ﴿أَحْسِبِ النَّاسَ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ . وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾.

انظر إلى المؤمنين حين رأوا الأحزاب أتوا من كل جانب وزلزلوا، وبلغت القلوب الحناجر، ومع ذلك قال الله تعالى حكاية عنهم: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾، أن الحياة دار ابتلاء، ودار أغيار، وأن صدق الإيمان يقتضى مواجهة الابتلاء بالصبر والكفاح، وإما النصر وإما الشهادة، والمؤمن - كما قال النبي - ﷺ - حاله كله خير، إن أصابته سراء شكر، وإن أصابته ضراء صبر؛ وقد قال الله - عز وجل - في وصفهم ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ

رَجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾.

هؤلاء هم الذين إذا أقسموا على الله أبرهم الله ألا ترى إلى قوله - تعالى - : ﴿أَمَرْتُ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزَلُّوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصُرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾. ويقول سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾. وليس معنى الإحسان أن تخرج من جيبك شيئاً، وإنما معناه عام أن تكون محسناً في كل شيء، وأهم شيء يبدو فيه إحسانك إسلامك ولن يحسن إسلامك حتى تعمل بمقتضاه وعندئذ يبر قسمك الله.

١٣ - إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ

في سورة محمد يقول الله - عز وجل - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾. ويقول عز وجل: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾. وقوله سبحانه ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾. بلا النافية للجنس يعنى أنه إذا نصرنا الله - فلا غالب لنا من جن وإنس وعفريت، وسحر وعين وهذا من عزيز الأحلام وعسيرها التي هي عند الله - عز وجل - يسيرة.

نعم من عزيز الأحلام لنفى الغالب من كل جنس ومن كل مكان، وفي أى زمان، فأنت في منعة من الله، وهو خير حافظاً وهو أرحم الراحمين، هل يتصور إنسان أنه لا غالب له، وهو وارث ثقافة فيها ما لا يحصى من الغالبين، من نحو قوله: الكثرة تغلب الشجاعة والهوى غلب، وغلبتنى، والحياة غلب، أى هم وكدر، وما يغلب فيها الإنسان كثير بلا عدد ولا حصر، ولا شك أن تدبر القرآن الكريم، ومن تدبره هذه الآية الكريمة يجعل المرء في سعادة غامرة، بلا حدود؛ لأنه يشعر باطمئنان؛ لأنه وعد الله - عز وجل - ووعد الله حق، بأن لا غالب لك إن نصرك الله - عز وجل -

والسبيل إلى نصر الله لك أن تنصر الله، فإن سألت وكيف أنصر الله؟ فالجواب أن معنى نصرك الله أن تنصر دين الله - عز وجل - ولكي تنصر دين الله عز وجل عليك أن تعمل بما أمر، وتنتهي عما نهى، أو أن تلتزم بتعاليم دينك عبادة تعظم شعائرها، فلا تستهين بها، ومعاملة تتقى الله عز وجل فيها، فأنت تعامل الناس بمثل ما تحب أن يعاملوك به، كما جاء في وصية النبي ﷺ - لأكثر من واحد، قال له: يا رسول الله، أوصني؛ فقال له - عليه الصلاة والسلام - عامل الناس بمثل ما تحب أن يعاملوك به، وأنت بلا شك تحب أن يعاملك الناس بأمانة وإخلاص، ورحمة ولين وتسامح، تحب ألا يغشك أحد؛ فلا تغش أنت أحداً، وتحب أن يفى لك الذي وعدك، فكن كذلك وفياً مع الناس إن عاهدتهم، وتحب أن يغفر الناس لك هنالك وذلاتك فاغفر لهم أيضاً لوجه الله - عز وجل - وتحب ألا يمن عليك أحد منهم إن كان ذا يد عليك؛ فلا تمنن كذلك علي أحد كانت لك يد عليه، قال الله - تعالى - : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾، وتحب بلا شك أن يزورك الناس إذا مرضت؛ فزر أنت مريضهم، وتحب ألا يسخر أحد منك، فلا تسخر أنت من أحد، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ﴾.

وتحب أن يناديك الناس بأحب الألقاب إليك فناد كل امرئ بأحب الألقاب إليه ﴿وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ﴾. وتحب أن يؤدي إلي الأمانة إليك أمانتك فأد الأمانة إلى من ائتمنك ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾.

وفي الصحيح يقول - ﷺ - : "أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك". وتحب إن صاهرك أحد أن يرحم ابنتك، وألا يسئ إليها، وأن يسترك ويسترها، فكن كذلك إن صاهرت أحداً، أن ترحم ابنته أو أخته، وأن تستر عليها وعلى أهلها، ولا تفضح سرها، وتذيع بين الناس عيوبها، ونقائص أهلها، وسوء عاداتهم وغير ذلك.

ولا شك أنك تحب أن يحسن إليك جارك، وأن يحترمك الناس، ويوقروك فكن كذلك محسناً إلى جارك، محترماً الناس، كما أنك تحب أن يزهد الناس فيما عندك فكن زاهداً كذلك فيما عند الناس، ولا شك أنك تحب أن يحفظ الناس غيبتك، فأحفظ كذلك غيبتهم، ﴿وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾.

وكذلك تحب أن يحترم الناس حرمة بيتك فاحترم كذلك حرمة بيوتهم، ولا تفتح بيتاً بلا استئذان وتسليم، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتَسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾.

وأنت تحب أن يحب الناس لك الخير فلتكن كذلك تحب لهم ما تحب لنفسك، ففي الصحيح يقول النبي ﷺ - : "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه".

هذه خلاصة من نصر دين الله الذي جعله الله تعالى نصراً له. إذا تحققت تلك النصرة فأنت على وعد من الله حق بأن ينصرك فلا غالب لك، وهذا حلم عزيز المنال لكنه عند الله ذى الجلال يسير جداً!

١٤ - (وكذلك نجزي المحسنين)

أوحى الله - تعالى - إليه، وقد ألقاه إخوته في غيابه الجب: لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون، وبيع يوسف - عليه السلام - بعد أن انتشله السيارة بدراهم معدودة، وكانوا فيه من الزاهدين، وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وكذلك مكن الله - تعالى - ليوسف فى الأرض، ثم قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾. وكما قال تعالى فى قصة يونس - عليه السلام - : ﴿وَنَجِّنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾. قال كذلك فى يوسف - عليه السلام - : ﴿آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾. والحكم والعلم ليسا من الأشياء

الهيئة، فقد قال الله عز وجل: «يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا».

وقال في معرض منه على رسوله - ﷺ - «وَعَلِمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا». وقال تبارك اسمه «اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ. الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ. عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ». وقال تبارك اسمه: «ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ». إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث الشريفة التي منها قول النبي - ﷺ - "مجلس علم خير من عبادة ستين سنة" وقوله - عليه الصلاة والسلام -: "خيركم من تعلم القرآن وعلمه" ويقول الشاعر:

بالعلم والمال يبني الناس ملكهمو لم يبين ملك على جهل وإقلال

وهنا قضية من كبرى القضايا المهمة في بناء الفرد والأمة، وهى قضية الشباب، وصلتهم بالعلم والحكمة، فالشائع بين الناس واقع يخالف ما عليه الهدى العظيم، والنظم الكريم، فهو يقول إن الشباب فترة لهو وعبث، وخطيئة، حدثني شاب فقال لى: أنت تعلم أن الشباب طبعاً يعيش حياته بالطول والعرض وقد أخطأت مع عدد غير قليل من البنات والنساء، وفضضت بكارة إحداهن، فهل من الواجب على أن أتزوجها، وقبل أن أجيبه استوقفته عند قوله "طبعاً"، وقلت له: ليس ذلك طبعاً، وإنما ذلك على ذات الإعراب شاذاً، أو ابتداءً فالشباب هم الذين نشروا العلم والدين، وجاهدوا فى الله حق جهاده، نزل بذلك الذكر الحكيم، ونطق بذلك واقع السيرة النبوية العطرة، قال الله - عز وجل - فى أصحاب الكهف «إِنَّهُمْ فَتْنَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى»، وقد كان الشباب حول رسول الله - ﷺ - علماء ومجاهدين أمثال زيد بن ثابت كاتب الوحي، ومعاذ بن جبل أعلم الأمة بالحلال والحرام وعبدالله بن عمر - أشد الناس إتباعاً لسنة رسول الله - ﷺ - وأسامة بن زيد حب رسول الله - ﷺ - وابن حبه، عينه النبي قائد جيش فيه كبار

الصحابة. ولم يكن بلغ العشرين من عمره، هؤلاء هم الشباب، وهم الذين ينبغي أن يقال فيهم "طبعاً" أى طبعاً هم القوة التى تستغل فى طاعة الله ورضوانه وخاضوا معه الحروب، وغزوا معه الغزوات، وكان بعضهم يبكى إذا رده النبي - ﷺ - لصغر سنه، وقد جاءه يحمل سيفه، ويقول: أنا مصارع يا رسول الله، لا تنظر إلى صغر سننى، فكيف صرنا بالشباب إلى هذه الطريقة المؤسفة التى يقال فيها طبعاً إنه سكير، صاحب نساء، يقضى الليل معربدا ومدمنا، ويعتدى على الصغار بالضرب، وعلى الكبار بالإهانة، وعلى الطرقات بالأذى، ومطلوب منهم ومن غيرهم أن يميظوا عنها الأذى، صحيح أن هناك بفضل الله شباباً ملتزمين ومشرفين نراهم يصلون، ويصومون، ويطلبون العلم بجد، وهم على خلق حسن، لكن الغالب هو ما يزعجنا من سلوك هؤلاء الذين إذا ركبوا سيارة انطلقوا كالسهم يحفرون بها الأرض، ويزعجون الناس بأصواتهم المنكرة، وألفاظهم البذيئة، وسلوكياتهم المنكرة، ناهيك بالأعمال الدرامية الكثيرة التى تصدر تلك المآسى والمعاصى التى يرتكبها الشباب، ولا ندري أهى تصدر واقعاً وتعالجه كما يزعم أصحابها، أم أنها خيال ومبالغة ينتقل إلى الشباب فيتأثرون به، ويجب علينا إزاء تحقيق الأحلام العظيمة التى هى عند الله - تعالى - يسيرة أن نربى شبابنا على الدين وأن نغرس فيهم أن تلك الفترة التى هى فترة الشباب قوة لن تعود، وهى جملة اعتراضية بين جملتين من الضعيف «اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً». فلن يعود الشباب أبداً بعد زواله. فهلا انتهزتموه فى طاعة الله كى يؤتكم الحكم والعلم.

١٥- وأن لو استقاموا على الطريقة

فى سورة الجن يقول الله - سبحانه وتعالى -: «وَأَنْ لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِينَاهُمْ مَاءً غَدَقًا». والطريقة: الإسلام، والاستقامة عليه دوام العمل بمنهجه، والالتزام بمبادئه وآدابه. والماء الغدق: الرزق الواسع الشامل لصنوف الخيرات، وعبر عن

جميعها بالماء؛ لأن الماء سر الحياة، والعوام يفهمون هذا المعنى ويستعملون الماء فيه، يقول الناس: الماء قليل، ولا يقصدون بذلك السائل المعروف، إنما يقصدون المال، وهكذا، ولا شيء أعز من أن ترزق من كل شيء، فهذا حلم صعب المنال، لكنه بالنسبة إلى الله عز وجل يسير جداً فلو أعطى ربنا - سبحانه وتعالى - كل إنسان مسأله ما نقص ذلك من ملك الله عز وجل شيئاً؛ فإن ربنا تعالى لا تفنى خزائنه. ولا يحظر عطاؤه، قال تعالى: ﴿وَأَنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾. وقال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ عِطَاءُ رَبِّكَ مُحْظُورًا﴾.

والسبيل إلى تحقيق هذا الحلم العظيم الذي هو عند الله - تعالى - عظيم الاستقامة على منهج الدين، وقد وصى رسول الله - ﷺ - رجلاً - بقوله: "قل آمنت بالله - تعالى - ثم استقم" وفي محكم التنزيل يقول الله - عز وجل - ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ . نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾.

وما أيسر الاستقامة على من وفقه الله - تعالى - إلى فقه دينه وما أصعبها على المترددين الذين يستقيمون يوماً وينحرفون أياماً.

ومأساة هؤلاء تكمن في ثقافة خاطئة هي أن الدين عندنا - إلا من رحم الله - حالة، لا حياة، أي أننا في رمضان مثلاً نكون أقرب إلى الاستقامة، حيث نلتزم الصوم، ونواظب على الصلاة، ونخرج الصدقات، ونعد الموائد التي أطلقنا عليها موائد الرحمن، ونتلو القرآن الكريم، ونصل الأرحام، وغير ذلك، وبعد أن ينقضى رمضان، تخلع المرأة غطاء الرأس، وتعود سيرتها الأولى مع التبرج ولبس الضيق، وتهجر المساجد، وتهمل المصاحف، وما أشبه ذلك بقول شوقي:

رمضان ولى هاتها يا ساقى
مشتاقاً تسعى إلى مشتاق

أي مضى رمضان، فهيا إلى الخمر التي كنا نشربها قبله، فهي مشتاقه إلينا ونحن في شوق إليها، وكأن رمضان زمان الدين والاستقامة على منهجه ومبادئه، هذه حالة، والدين حياة لا حالة.

وكذلك المناسبات الدينية، فمثلاً درسنا في الفقه الإسلامى أن من الفروق بين الحج والعمرة أنه لا زمان للعمرة، فهي تصح في أى وقت من السنة بخلاف الحج فله ميقات زمانى معروف من أول يوم فى شوال إلى التاسع من ذى الحجة" وانظر إلى الناس كيف أطلقوا عليها (عمرة المولد النبوى) و(عمرة رجب) و(عمرة رمضان) فهل يصح هذا الإطلاق! وهل تراه إلا دليلاً على أن الدين صار عندنا حالة لا حياة، فربطنا شعائره بالمناسبات الدينية، المولد النبوى، ورجب المحرم ورمضان!

وكذلك المناسبات الخاصة، ومن أمثلتها المرض، ترى المرء عند مرضه متضرعاً خاشعاً داعياً، متصدقاً، أقرب ما يكون إلى الاستقامة، وكذلك من يحبه إذا وجد من يحبه، فإذا شفاه الله عز وجل، وانتعش عاد سيرته الأولى من عدم الاستقامة.

وأن تكون للإنسان حاجة، تراه يسأل عن صلاة الحاجة، وعن دعاء يحقق له حاجته، ويستقيم، ويقصد الأيمان والنذور، فإذا تحققت حاجته فلا صلى ولا صام، ولا أخرج شيئاً ابتغاء وجه الله - عز وجل.

ومن مناسبات المسرات أن ينجح ولده، أو تتزوج ابنته العانس، تراه يذبح، كما يذبح عند شراء سيارة جديدة، أو يبني أو يشتري بيتاً جديداً، وفى الزواج شرعت الأطعمة، لكن لا ذبح عند شراء سيارة أو بناء بيت جديد، فإن الذبح من الشعائر، والشعائر التي يذبح فيها العقيقة عن المولود، والأضحية، والهدى، والنذر، وليس منها شراء شيء ما، لكنها المناسبات والعادات، والله تعالى يقول فى عباده المتقين الذين أعد لهم جنات عرضها السماوات

والأرض: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾. فلا أدل على الاستقامة من إنفاقهم في السراء والضراء، يقول أحدهم لولده الذي قال له: إنك معذور لفقره، وكان يتصدق وهو في حال الفقر: أخشى أن أقطع عادتى مع الله، فيقطع الله عادته معى، وقد سئل - عليه السلام - عن أحب العمل إلى الله فقال: أدومه وإن قل.

١٦- لئن شكرتم لأزيدنكم

روى أن رجلاً سأل كريماً درهمين فأعطاه أربعمئة، فسأله خازنه قائلاً: كيف تعطيته أربعمئة وقد سألك درهمين! فقال ذلك الكريم: لقد سألتني على قدره؛ فأعطيتُه على قدرى، فما بالناس بقدر الله - عز وجل - القائل: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾. فجعل ربنا - عز وجل - الشكر سبيلاً إلى زيادة نعمه علينا، وهذا مما لا يحد بحد ولا يعد بعد، فما الشكر؟

يظن كثير من الناس أن معنى الشكر أن تقبل يدك ظاهرها وباطنها وأنت تقول: الحمد لله والشكر لله مراراً وتكراراً وليس ذلك من الشكر فى شىء؛ لأن شكر الله - عز وجل - عمل فإن صحب العمل قول فلا بأس، أما أن يكون الشكر مجرد قول فلا، قال الله - عز وجل -: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورِ﴾.

وقد تورمت قدما رسول الله - عليه السلام - من قيام الليل، فلما قيل له: ألم يغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال عليه الصلاة والسلام: أفلا أكون عبداً شكوراً.

من أجل ذلك كان دون زيادة النعم التى هى أحلام عظيمة، وهى عند الله - تعالى - يسيرة جداً أهوال، فى تحقيق معنى الشكر على وجهه الصحيح، وهو العمل، فإن كنت ذا علم فشكرك إياه أن تنشره، وأن تفيد به الناس وإن كنت ذا مال فالصدقة أفضل العبادات على الإطلاق فتطوع بعد إخراجك زكاة مالك، وأنفق،

عسى أن تصيبك دعوة الملك الذى يدعو كل صباح: اللهم أعط منفقاً خلفاً، وإن كنت ذا جاه وسلطان فقرب إليك الضعفاء، وذوى الحاجات واقض حاجتهم، وفى الحديث الصحيح الشريف "والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه" وقد قال الله - عز وجل - فى آية القصص: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾. أى كن مريداً للآخرة، أى جنتها ونعيمها فيما آتاك الله ولو فطنت الأمة هذه الآية الكريمة، فابتغى أفرادها الدار الآخرة بما أوتوا، هذا من علمه، وذلك من ماله، وذلك من وظيفته التى هو أمين عليها ومؤتمن، لارتفعت راية الدين وتحسنت أحوال الفرد والأمة؛ فإن هذا السلوك المفقود كان سبيلاً إلى زيادة النعمة.

وقد جاء النظم الجليل بلفظة "كفر" فى مقابلة "الشكر" ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾. وفى البخارى باب عنوانه "كفر دون كفر" ومعنى الكفر: الستر، أى من ستر نعمة الله استحق عذابه، وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾. فأين التحدث بالنعمة عند كثير من المسلمين الذين يلزمون الشكوى، ويقولون: ليس معنا، ليس عندنا، ودائماً يشكون مر الشكوى وهم قد يسر الله - تعالى - عليهم، وليسوا فى حاجة، بعضهم يحب أن يتزود بالكثير، وفى الحديث: "من سأل الناس وعنده فإنما يتزود من جمر النار" وبعضهم يرى ذلك دفعاً للحسد، والحسد لا يضر إلا بالحاسد، ولا يضر بالمحسود.

اصبر على كيد الحسود فإن صبرك قاتله

فالنار تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله

والله - عز وجل - يقول فى آية النساء: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً﴾.

أى برغم حسد الحاسدين أتى الله - عز وجل - آل إبراهيم - عليهم السلام - الكتاب والحكمة، وآتاهم ملكاً عظيماً. وفى الحديث

الصحيح الذي رواه البخارى وغيره: "إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده" قاله -عليه السلام- في رجل بدا بهيئة رثة؛ فسأله: ألك مال؟ قال نعم يارسول الله فقال -عليه السلام-: أكرم نفسك كما أكرمك ربك.

وفى رواية: إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده، فالظهور بمظهر حسن من آيات التحدث بالنعمة، وقد كان -عليه السلام- أطيب الناس شكلاً، وأطيبهم رائحة، وثوباً ونعلاً. سألت أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- عن طيبه -عليه السلام- فقالت: كان طيبه أطيب الطيب، وقد أكل الحلو، وكان -عليه السلام- يأكل من الشاة الكتف وهو أطيبها، ولكننا مع الأسف نسبنا إليه الفقر، وهذا مما لا يليق بحال، فهو أغنى الناس نفساً ومالاً، وقد شكر الله بلا شك فكيف يتصور عنده النقص، والله -تعالى- يقول: ﴿لِنُشْكِرَنَّكُمْ﴾ لا زِيدَنكُمْ!

أحلام يسيرة دونها أهوال

التضرع إلى الله يكشف البلوى، والبأساء، وهو أمر يسير، وكشف البلوى بالنسبة إلى الله -عز وجل- أيسر، فإن الله -ربنا- لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، قال زكريا -عليه السلام-: ﴿أَنى يَكُونُ لِي غَلامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾؛ فقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾. وقالت مريم -عليها السلام-: ﴿أَنى يَكُونُ لِي غَلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشِيرٌ وَلَمْ أَكْ بِغَيًّا﴾. فقال الله -تعالى-: ﴿كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾. نفدت الأسباب ورأت العيون ألا أمل، وكان من الله كل أمل، ما شك أحد من الكفار في هلاك إبراهيم -عليه السلام- بالنار الموقدة لكن الله نجاه، حيث قال: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾.

وقال أصحاب موسى -عليه السلام-: إنا مدركون لما تراءى الجمعان فقال: كلا إن معى ربي سيهدين، فهداه الله -عز وجل- وأوحى إليه أن اضرب بعصاك الحجر، فانفلق، وسلك فيه طريقاً يبساً، وأدركه فرعون وجنوده؛ فأغرقهم الله -عز وجل- ونجى موسى ومن معه أجمعين.

وخاف أبو بكر -رضي الله عنه- علي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال له -عليه السلام-: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، إن المحال بالنسبة إلى الناس يسير عند الله لأن الله -عز وجل- أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون.

وقد قال الله -عز وجل-: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَآخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ . فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ . فَقَطَّعَ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

فتأمل قوله -تعالى-: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾. أى أن الذين جاءهم البأس لو تضرعوا لكشف الله -تعالى- البأس عنهم، ولكن كما قال الله -عز وجل- قست قلوبهم.

وهذا معنى جديد لقسوة القلب، ربما مرت علينا الآيات الكريمة، ولم نتوقف عنده ملياً، حيث جرت عادتنا على أن قاسى القلب هو الذى يفجر عند الخصومة، وهو الذى يأب أن يعفو عمن ظلمه، أو يسامح فى بعض حقه، أو يقطع رحمه، أو يعق والديه، أو يضرب ولده، أو يضرب خادمه ضرباً شديداً، وغير ذلك.

وههنا يبين لنا ربنا -تعالى- أن قاسى القلب هو الذى إذا أصابته مصيبة أبى أن يتضرع إلى الله ويتمسكن، ويدعوه كى يكشف الضر عنه، انظر إلى أيوب -عليه السلام- حين تضرع إلى الله -تعالى- وشكا إليه حاله، وأثنى عليه بما هو أهله؛ فكشف الله عنه الضر، وأتاه أهله ومثلهم معهم رحمة من عنده -عز وجل- وذكرى للعابدين.

قال الله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ. فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذَكَرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾.

فأى شىء يتذكره العابدون سوى أن يتضرعوا لله رب العالمين كما تضرع، ويثثوا على الله - عز وجل - كما أثنى ويكونوا على يقين من كشف الله - عز وجل - الضر عنهم كما كشف عنه - ~~عليه السلام~~ -.

إن قساة القلوب هم الذين لا يتضرعون إذا أصابتهم الكوارث، ومن ثم كانوا على مقربة من الهلاك، إثر فتح الله عليهم كل باب، وحين يفرحون بما أوتوا يأخذهم الله بغتة فيطبق عليهم اليأس دون تدخل ولو طفيف من بارقة أمل وتحيط بهم غياهب الأخذ الشديد ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقَرْيَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾.

ما كان أيسر أن يرفعوا أكف الضراعة، ومن ورائها ضلوع منكسرة، واعتراف بالتقصير، وتبتل إلى الله على صدق أن يكشف البلوى، حتى يعودوا إلى صالح الأعمال، لكن دون هذا التضرع أهوال من قسوة القلب، تلك القسوة التي تمتد بلا شك من عدم التضرع إلى الله عز وجل - إلى عدم الاعتذار للناس، وركوب الرأس وفساد العادات الذي يصور للمرء أنه ضعيف إذا اعتذر حتى وإن كان ذلك صحيحاً عند الناس أفيكون صحيحاً عند الله، وقد قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾.

المحتوى

الصفحة	الموضوع
٣	مقدمة
٧	الفصل الأول: أحلام يسيرة دونها أهوال من النفس البشرية
٩	١- أحلام يسيرة دونها أهوال
١٣	٢- أحلام يسيرة لكن دونها أهوال
	٣- أحلام دونها أهوال يسيرة
١٦	٤- أحلام يسيرة دونها أهوال
٢١	فقد اللغة
٢٣	فقد العلم
٢٥	فقد التعارف
٢٧	٥- أحلام يسيرة دونها أهوال
٤٦	٦- أحلام يسيرة دونها أهوال (ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون)
	٧- أحلام يسيرة دونها أهوال
٤٨	لوبا العين
٥٠	٨- أحلام يسيرة دونها أهوال
	٩- أحلام يسيرة دونها أهوال
٦٠	فقد الثقافة الدينية الصحيحة
٦٣	١٠- أحلام يسيرة دونها أهوال
٦٣	١- ثقافة السوء
٦٥	٢- ثقافة السوء (ذكر السيئات)
٦٨	٣- ثقافة السوء
٧٠	٤- ثقافة السوء
٧٣	٥- ثقافة السوء
٧٥	٦- ثقافة السوء (بشر روح الرعب)

الصفحة	الموضوع
٧٨	٧- ثقافة السوء (سوء الظن)
٨٠	٨- ثقافة السوء (الاستشارة الخائبة)
٨٣	٩- ثقافة السوء (تمنى القليل)
٨٦	١٠- ثقافة السوء (قل يا رب)
٨٩	الفصل الثانى : أحلامنا العسيرة يسيرة عند الله لكن دونها أهوال
٩١	١- العسير عندنا يسير عند الله ولكن
٩٣	٢- العمل يحقق عسير الأحلام
٩٥	٣- إقامة الدين تحقق عسير الأحلام
٩٨	٤- تقوى الله تحقق عسير الأحلام
١٠٠	٥- إن الله يغفر الذنوب جميعاً
١٠٣	٦- الاستغفار يحقق عسير الأحلام
١٠٥	٧- فعند الله مغانم كثيرة
١٠٧	٨- فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله
١٠٩	٩- وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل
١١٢	١٠- وكذلك ننجى المؤمنين
١١٤	١١- وما أنفقتم من شئ فهو يخلفه
١١٧	١٢- رب أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره
١١٩	١٣- إن تنصروا الله ينصركم
١٢١	١٤- وكذلك نجزي المحسنين
١٢٣	١٥- وإن لو استقاموا على الطريقة
١٢٦	١٦- لنن شكرتم لأزيدنكم
١٢٨	١٧- أحلام يسيرة دونها أهوال